كنوز القصص الإنساني العالمي

٩

حياتي

قصة رجل من الريف

أنطون تشيخوف

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

obeikandl.com

My Life

The Story of a Provincial

by

Anton Tchehov

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
بيروت ، حزيران ١٩٥٤

obeikandl.com

١

قال لي المدير :

« لستُ أحتفظ بك إلا احتراماً مني لأبيك الفاضل . ولولا ذاك لجعلتك تطير من هنا منذ عهد بعيد ... »

فأجبته :

« إنك تغدق عليّ المديح بأكثر مما استحق ، يا صاحب المعالي ، حين تفترض أني قادرٌ على الطيران ! »

وعندئذ سمعته يقول :

« أبعدوا هذا الرجل عني . إنه يثير اعصابي . »

وبعد يومين اثنين سُرّحت من عملي . وهكذا خسرتُ ، خلال السنوات التي اعتُبرتُ فيها شاباً أو رجلاً ، تسع وظائف كان فقداني لكل منها يوقع الهـــمّ والحسرة في نفس والدي ، مهندس بلدتنا المهاري . لقد خدمتُ في دوائر مختلفة ، ولكن كلاً من تلك الوظائف التسع كانت تشبه اختها كما تشبه قطرةُ الماء قطرةَ الماء . كان يتعيّن عليّ دائماً ان أقعد ، واكتب ، واستمع الى ملاحظات فظة او بلهاء ، وأقيم على عمل ذلك حتى سُرّحت .

وحين دخلتُ على ابي كان غارقـاً في كرسيّ منخفض ذي

ذراعين ، وكانت عيناه مغمضتين . وكان وجهه الجاف المهزول ، الذي يرين على الجزء الحليق منه ظلّ أزرق داكن (كان يبدو أشبه ما يكون بأحد عازفي الأرغن الكاثوليك) ينمّ عن الاستسلام والاذعان . ومن غير ان يستجيب لتحيتي او يفتح عينيه ، قال :

« لو كانت امرأتي العزيزة وأمك حية ، إذن لكانت حياتك مصدر اسىً موصول لها . إني لأرى لطف العناية الالهيـــة في موتها المبكر . »

ثم إنه فتح عينيه ، وأضاف :

« أتوسل اليك ، ايها الغلام التاعس ، أن تقول لي : ما الذي يتعين عليّ ان اعمله بك ؟ »

في الايام الخالية ، حين كنتُ أنضر عوداً ، عرف اصدقائي وانسبائي ما الذي يتعين عليهم ان يعملوه بي : كان بعضهم ينصح لي بأن اتطوّع في الجيش ، وبعضهم بأن التمس عملاً في صيدلية ، وآخرون بأن احصل على وظيفة في ادارة التلغراف . اما اليوم وقد عدوت الخامسة والعشرين من العمر ، وأخذ الشيب يُطلع رأسه في صدغيّ ، والتحقتُ بالجيش وببعض الصيدليات وبأدارة التلغراف ، فالذي يبدو ان جميع الامكانيات الارضية قـــد استُنفدت ، وأقلع الناس عن إسداء النصح اليّ ، فهـم يكتفون بأن يتنهدوا ويهزوا رؤوسهم ليس غير .

وتابع أبي كلامه :

« ما ظنُّك في نفسك ؟ إن الشبان لا ينتهون الى مثـل سنك الا وقد فازوا بمركز اجتماعي راسخ ، في حين انك انت ـ أنظر

الى حالك ! _ بروليتاري ؟ شحاذ ؟ عالةٌ على ابيك ! »

وجرياً على عادته ، تقـــدّم الى النصح على أن شبان العصر الحاضر في سبيلهم الى الهلاك ، من طريق الالحـــاد ، والمادية ، والخُيَلاء . وأنه يتعين على الحكومة أن تحول بين المسرحيين الهواة وبين القيام بأيما نشاط ، لانهم يُغوون الشبان فيتنكّرون لدينهم وواجباتهم .

وخلص الى القول :

« غداً سوف نذهب معاً ، ولسوف تعتذر انت للمدير وتعده بأن تعمل بوحيٍ من الضمير. ينبغي ان لا تبقى يوماً واحداً من غير ما وظيفة نظامية في المجتمع . »

فقلت في تبرّم ، وأنا لا أتوقع أيما خير من هذه المحادثة :

« أتوسل اليك أن تصغي اليّ . إن ما تدعوه وظيفة في المجتمع امتياز خاصٌ برأس المال والثقافة . أما اولئك الذين لا يتمتعون بأيّ من الثروة أو الثقافة فيكسبون خبزهم اليومي من طريق العمل اليدوي ، ولستُ أرى سبباً ما لأن أشذّ أنا عن القاعدة . »

فقال أبي في غيظ :

« حين تبدأ في الكلام عـــلى العمل اليدوي فعندئذ يكون كلامك أبله مبتذلاً دائماً ! إفهَمْ ، ايها الغلام البليد — إفهَمْ ، أيها الأحمق ، أن لك الى جانب القوة الجسمانية الجافيـــة تلك الروح الالـهية ، وهي قبسٌ من النـــار المقدسة ، التي تميزك أروع ما يكون التمييز من الحمار أو الحيوان الزحاف ، وتجعلك أقرب الى الله ! هذه النار هي ثمرة جهود الصفوة المختارة من أبنـــاء الجنس

obeikandl.com

البشري خلال آلاف من السنين . إنّ جدّ جدك ، بولوزنيف ، كان جنرالاً ، وقد قتل في بورودينو . وجدك كان شاعراً ، خطيباً ، ونقيباً للاشراف . وعمك مدرس . وأخيراً ها أنذا — أبوك — مهندس معمار ! إن البولوزنيفيين جميعاً حافظوا على النار المقدسة لكي تأتي أنت وتطفئها ! »

فقلت :

« يتعين على المرء أن يكون منصفاً . إن ملايين من الناس ليقاسون بلاء العمل اليدوي . »

— « دعهم يقاسونه ! إنهم لا يعرفون أن يصنعوا شيئاً غير ذلك ! وكلّ امرىء، حتى أحقر المجانين والمجرمين، قادر على العمل اليدوي . مثل هذا العمل هو علامة الرقيق والبربري الفارقة ، في حين ان النار المقدسة وقفٌ على قلةٍ قليلة ليس غير ! »

كان الاستمرار في هذه المناقشة عبثاً لا طائل تحته . فقد كان أبي يُجلّ نفسه ويقدسها ، فليس ثمة ما يقنعه غير أقواله هو . والى ذلك ، فقد كنت أعلم علم اليقين ان الازدراء الذي يصدر عنه في كلامه على العمل الجسدي الكادح ليس ينهض على اساس من إجلاله للنار المقدسة بقدر ما ينهض على ذعرٍ خفيٍّ من أن أغدو عاملاً ، ومن أن تنطلق ألسنة البلدة كلها في الكلام عليّ . وكان اسوأ من ذلك جميعاً أن اترابي قاطبةً ظفروا بشهاداتهم منذ زمن بعيد وشقوا طريقهم في الحياة . وأن نجل مدير « بنك الدولة » انتهى الى ان يصبح مساعد استاذ في احدى الكليات ، على حين انني أنا — ولده الأوحد — لم اكن شيئاً ! كان الاستمرار في المناقشة

عقيماً بغيضاً الى النفس ، ومع ذلك فلم أبرح مكاني ، ورحت أدفع دعواه في ضعف ، رجاءَ أن أحمله على فهمي ، آخر الأمر . وكانت المسألة كلها واضحةً وبسيطةً ، طبعاً ، وكانت قاصرةً على الوسيلة التي اكسب بها رزقي . ولكن سهولة المسألة حجبت عن بصر أبي ، فأنشأ يخاطبني بعبارات ملتوية يعافها الذوق تدور على محور بوروديتو ، والنار المقدسة ، وعمي الشاعر المنسيّ الذي نظم ذات يوم بعض القصائد الكسيحة المتكلّفة ؛ ويدعوني في فظاظة وغلظة غلاماً بليداً وصبياً احمق . ولشدّ ما تاقت نفسي الى ان أفهم ! وبرغم كل شيء ، فقد أحببت أبي ، وأحببت أختي ، وكان من دأبي ، منذ الطفولة ، أن أشاورهما في أمري — وهي عادة تذهب جذورها عميقاً في نفسي حتى انني لأشكّ في مقدرتي على التخلص منها في يوم من الايام . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان من دأبي دائماً — سواء أكنتُ على حقّ ام على ضلال — أن أحاذر جرحهما ، خائفاً أبداً من أن تحول عنق أبي الهزيلة قرمزيةَ اللون ، ومن أن يُصاب بضربة مفاجئة من ضربات الشلل .

وبدأتُ محاولتي بالقول :

« إن القعود في غرفةٍ جبيسة الهواء ، ونَسْخ الأوراق ، ومنافسة الآلة الكاتبة شيء معيب يحطّ من قدر رجلٍ في مثل سني . أيّ علاقة يمكن أن تكون للنار المقدسة بهذا كله ؟ »

فقال أبي :

« إنه عملٌ عقليّ ، على أية حال . ولكنّ في هذا كفاية . فلنقطع هذا الحديث . وأياً ما كان فأنا أحذّرك : إذا لم تعد الى

عملك كرةً أخرى ، مؤثراً ان تتّبع أهواءك الحقيرة المرذولة ، فعندئذ ننفيك ، أنا وابنتي ، من قلبينا . سوف أحرمك ميراثي ، وحقّ الله الحيّ ! »

وفي رغبة صادقة في إقامة الدليل على صفـــاء الدوافع التي أردت أن توجهني في أعمالي جميعاً ، قلتُ لوالدي :

« إن مسألة الميراث لا تبدو مهمةً جداً في نظري . سوف أتخلّى عنه كله منذ الآن . »

ولسببٍ ما استاء أبي ، وكم قد أدهشني ذلك ، استياءً عظيماً من هـــذه الكلمات . وغدا لونه قرمزياً ، وصاح في صوت نحيل حادٍّ :

« لا تتجرأ على مخاطبتي بمثل هذه اللهجة ، ايها الأبله ! »

وفي حركة سريعة بارعة معتادة ، صفعني مرّتين على وجهي ، صائحاً :

« ايها الكسول الذي لا يصلح لشيء ! أنت تنسى نفسك . »

وفي عهد طفولتي ، كان يتعين عليّ ، حين يضربني أبي ، أن أقف منتصب القامة ويداي ملصقتان في تصلّب بموضع الدرز من بنطلوني ، وأتطلّع إليه في وجهه مباشرةً . حتى اذا صفعني ، الآن أسقِط في يدي وانكمشت ، وكأنني مـــا أزال طفلاً ، وحاولتُ أن أحدّق الى وجهه . كان أبي شيخاً كبيراً مهزول الجسم جداً ، ولكنّ عضلاته الدقيقة كانت قوية كالجلد ، لأن صفعاته أورثتني وجعاً بالغاً .

وارتددت مترنحاً الى المجاز ، وهناك اختطف مظلته ، وضربني

بها مراتٍ عديدة على الرأس والكتفين . وفي تلك اللحظة فتحت أختي باب ردهة الاستقبال لترى علام تلك الضجة كلها ، ولكنها ما لبثت أن انقلبت على عقبيها ، والذعر والاشفاق يعصفان بها ، ومن غير أن تنبس بكلمة واحدة دفاعاً عني .

وما كان لعزمي على عدم العودة الى الوظيفة الحكومية ، وعلى ان استهلّ حياة جديدة من الكدح - ما كان لعزمي هذا ان يتزعزع . كل ما قد بقي عليّ ان افعله هو ان اختيّر نوع العمل الذي أرغب في مباشرته ، ولم يكن في ذلك صعوبة خاصة ، بعد ان بدا لي انني قويّ جداً ، واني مؤهلٌ للقيام بأشقّ الاعمال واثقلها وطأة . لقد جوبهتُ بحياةٍ من الكدح رتيبة مملة وسطَ الجوع والحُشونة والنتانة ، وبالانهماك الموصول في كسب خبزي اليومي . ومن يدري ؟ فلعلي حين أعود من عملي عبر شارع دفوريانسكي الكبير أن أحسد دولزيكوف المهندس الذي يحيا بالعمل العقلي . ولكن التفكير في مصاعبي المستقبلة جعلني ، في تلك اللحظة ، جذلاً خليّ الفؤاد . لقد حلمتُ ، في عهدٍ مضى ، بالنشاط الروحي ، متخيلاً نفسي مدرساً أو طبيباً أو كاتباً ، ولكن هذه الاحلام ظلت احلاماً . فقد كان ميلي الى المتع العقلية - الى المسرح ، مثلاً ، والى المطالعة - جامحاً الى حد بعيد . اما ما اذا كانت لي ايّ قدرة على العمل العقلي فهذا شيء لم اكن واثقاً من صحته . ففي عهد الدراسة ، كنت استشعر اشمئزازاً لا يُقهر للغة اليونانية ، فلم اكد انتهي الى الصف الرابع حتى كفوا عن إرسالي الى المدرسة . واختاروا لي اساتذة مخصوصين اعدوني ،

فترة طويلة من الزمان ، للصف الخامس . ثم إني خدمت في مختلف المصالح الحكومية ، منفقاً القسم الأعظم من النهار في بطالة كاملة ، ولقد قيل لي ان ذلك هو العمل العقلي . والواقع أن عملي في الحقلين المدرسي والرسمي لم يتطلب لا موهبة ولا اصطناعاً للعقل ، ولم يقتضِ لا مؤهلاتٍ خاصة ولا حوافز مبدعة . كان عملا ميكانيكياً . ومثل هذا العمل العقلي هو عندي دون الكدح الجسماني مكانةً وخطراً . أنا أزدريه ، ولا أعتقد انه يبرر بحالٍ من الأحوال حياة أصحابه الكسول غير المبالية لأنه في الحق ليس غير تزوير او تمويه ، أحد اشكال تلك البطالة نفسها . اما العمل الحقيقي فأغلب الظن أني لم أعرفه البتة .

وهبط الليل . كنا نسكن في شارع دفوريانسكي الكبير وكان هو شارع البلدة الرئيسي . وإذ لم تكن ثمة حدائق عامة لائقة ، فقد كان ابناء الطبقة الراقية يتخذون منه ، في الأمسيات ، متنزّهاً لهم والى حدّ ما ، قام ذلك الشارع الفاتن مقام حديقة عامة ، إذ كان ينهض على كل من جانبيه صفٌ من شجر الحور العابق برائحة زكية ، وبخاصة بعد المطر ، والازدرخت ، وأدغال عالية من الليلنج والكرز البري والتفاح تتدلى فوق الأسيجة والأوتاد . ولشدّ ما كان غسق نوار ، والاخضرار الغض الرقيق بظلاله المنحرفة ، وعبير الليلنج ، وأزيز الحشرات ، والسكون والدفء — لشدّ ما كان هذا كله نضراً رائعاً ، على الرغم من ان الربيع يتكرر كل عام ! وكنتُ أقف عند باب الجنينة وأراقب العادين والرائحين . لقد نشأت مع الكثرة منهم ولهوتُ

معهم وعبثت ، في وقت ما. أما اليوم فلعلّ وجودي الى جانبهم يزعجهم . ولقـــد كانوا يشبهون بنطلوني الشديـــد الضيق وحذائي الضخم الأخرق بعصيٍّ من المعكرونة غُرزت في سفينة من السفن . والى هذا فقد كانت لي في البلدة سمعة رديئـــة لانني لا اتمتع بوظيفة اجتماعية لائقة ، ولأني كنتُ كثيراً مـــا ألعب البليارد في الحانات الرخيصة ، وأخيراً ، في ما يخيـل اليّ ، لأن احد ضباط الشرطة دفعني أمامه ، مرةً او مرتين ، دفعاً عنيفاً ، برغم اني لم آتِ أيا عمل يبرر ذلك الصنيع .

وفي المنزل الكبير المقابل لمنزلنا كان امرؤ يعزف على البيـان في بيت دولزيكوف . كان الظلام قد رانَ على الدنيـا ، وكانت النجوم تتغامز في السماء . وهنا تمشّى أبي على رسله ، وقـد اعتمر قبعة عالية عتيقة ذات حافة عريضة مقلوبة ، واتكأ عـــلى ذراع أختي ، وأنشأ ينحني رداً على التحيات الموجهة اليه .

وقال لأختي ، مشيراً الى السماء بتلك المظلة نفسها التي ضربني بها ذلك الأصيل :

« أنظري ، أنظري الى السماء ! حتى النجوم الصغرى كلهـــا عوالم ! ما أحقر الأنسان بالقياس الى الكون ! »

وانما قال هذا الكلام في جرْس يوحي بأنه يجد في حقارته تلك شيئاً سائغاً جداً ، شيئاً جديراً بأن يتمدح به ويتباهى . يا له من رجل خلوٍ من الموهبة والخيال ! ويحزّ في نفسي ان أقول إنه كان المهندس المعمار الأوحد في البلدة ، وأن بيتاً واحداً لائقاً لم يُبنَ فيها خلال السنوات الخمس عشرة أو السنوات العشرين الاخيرة .

كان اذا ما سأله امرؤ تصميماً لبيتٍ ينشئه، يعمد بادئ الأمر الى رسم القاعة وغرفة الاستقبال . ومثلما كانت اوانس المــدارس الداخلية ، في الايام السالفة ، يبدأن الرقص دائماً من الموقـــد ، كذلك كانت افكاره الفنية لا تستطيع ان تبدأ وتتطور إلا من القاعة وغرفة الاستقبال . والى هاتين ، كان يُلحق حجرة للطعام وحجرة للاطفال ، وغرفة للمطالعة ، واصلاً ما بين الغرف بأبواب وبذلك تتحول كلها بالضرورة الى ممرات ، ويصبح لكلٍ منهـــا بابان ، بل ثلاثـــة ابواب لا ضرورة لهـــا . وليس من ريب في أن خياله كان يعوزه الوضوح ، فهو أبتر ، مشوش الى حدٍ متطرف . وكان من رأيه ان يلجأ الى إقامة الأبنية الأضافية ، وكأنما هو يحس بأن المنزل ينقصه شيء ، رافعاً احدها في محاذاة الآخر . وفي استطاعتي الآن ان أرى الى المداخل الضيقة ، والممرات الصغيرة المحصورة ، والسلالم اللولبية المؤدية الى انصاف أرصفة حيث لم يكن في ميسور المرء ان يقف منتصب القامة ، وحيث كانت تقوم ، بدلاً من المنبسط المألوف ، ثلاث درجات ضخمة هي أشبه شيء برفوف الحمام . وكان المطبخ دائماً في الدور الذي تحت الأرض ، وقد فُرشت أرضه بالآجر ، وقُوّس سقفه . وكان لمقدم المنزل سيما فظة ، شكسة . كانت خطوطه متصلبة وجلة . وكان السقف منخفضاً ، مضغوطاً . وكانت المداخن المسطحة البدينة متوجة في جميع الاحوال بقلنسوات سوداء ذات صرير . ولسبب ما كانت هذه المنازل كلها ، التي بناها والدي على طراز واحد مكرور ، تذكرني تذكيراً غامضاً بقبعته الحريرية العالية والقسم

خلفي من رأسه ، الذي يبدو للناظر جافياً عنيداً . وعلى مرّ السنين ألفَ أهل البلدة خيالَ ابي الفقيرَ . لقد رسخت جذوره ، وغدا طرازنا المحلي .

وهذا الطراز نفسه أدخله أبي على حياة شقيقتي أيضاً ، ابتداءً من تنصيره اياها باسم كليوباترة (كما قد سماني أنا « ميسيل ») . وفي طفولتها ، أوقع الذعر في نفسها بأشاراته الى النجوم ، والى حكماء العصور القديمة ، والى أسلافنا ، وأقام على تحديثها عن طبيعة الحياة والواجب . والآن ، وقد بلغت السادسة والعشرين من العمر لا يزال يطبق عليها القواعد نفسها ، غير مجيز لها ان تشبك ذراعها بذراع ايّ إنسان سواه ، متخيلاً لسبب ما ان شاباً صالحاً لا بد ان يبرز عاجلاً او آجلاً ، فيطلب يدها احتراماً منه لسجاياه الشخصية . كانت تجلّ ابي ، وتخشاه ، وتؤمن بذكائه الاستثنائي .

كان الظلام دامساً . وشيئاً بعد شيء خلا الشارع من السابلة . وكانت الموسيقى قد صمتت في المنزل القائم تجاه منزلنا . وفُتح الباب على مصراعيه ، وانطلقت افراسٌ ثلاث تعدو في جذلٍ عبر شارعنا ، وقد انبعثت من اجراسها الصغيرة جاجلة رفيقة . كان المهندس قد خرج بعربته ابتغاء النزهة مع بنته . وكان موعد النوم قد حان .

وكانت لي غرفة خاصة في المنزل ، ولكني كنت أوثر ان احيا في سقيفة قائمة في الفِناء يُظلها نفس السقف الذي يظلّ عنبراً آجرياً بُني في وقتٍ ما لتُحفظ فيه اجهزة الخيل وحاجاتها ، وكانت قد أُقحمت في الجدار كلاّبات ضخمة . ولكنّ العنبر لم تزقَ له حاجة

الآن. وطوال السنوات الثلاثين الاخيرة جرت عادة أبي بأن يخبيء فيه صحفه، وقد جمعها لسبب من الاسباب في مجلدات نصف سنوية، ولم يدع احداً يمسّها. وكانت إقامتي في تلك الشقيقة تقصيني جهد الطاقة عن والدي وزائريه. ولقد توهمتُ انني اذا لم أعش في غرفة حقيقية ولم اقصد الى المنزل كل يوم لاتناول طعام الغداء فقدتُ كلمات أبي القائلة إنني عالةٌ عليه كثيراً من مضاضتها على نفسي.

كانت اختي تنتظرني. وكانت قد حملت اليّ، في نجوة من عيني ابي، عشاءً ما: رقاقة غير كبيرة جداً من لحم عجل بارد، وكسرة من الخبز. ففي بيتنا كانت امثال هذين القولين المأثورين: «الفلس الذي تقتصده هو الفلس الذي تكسبه» و «إعتنِ بالفلوس تُعنَ الدنانير بنفسها» كثيراً ما تُكرّر، ومن هنا كانت أختي، وقد رزحت تحت ثقل هذه الحكم المبتذلة، تضغط النفقات أقصى ما يكون الضغط، وتقتّر علينا في الطعام. حتى اذا وضعت الطبق على المائدة قعدتْ على فراشي وأنشأت تعول وتصيح، قائلةً:

«ميسيل، أية طريقة هذه التي تعاملنا بها!»

ولم تحجب وجهها. لقد تساقطت دموعها على صدرها ويديها، وكانت ثمة سيما من البؤس على وجهها. ثم إنها انطرحت على الوسادة، واستسلمت لدموعها، ناشجةً مرتجفة.

وقالت:

«لقد تركتَ الوظيفة مرةً ثانية... أوه، ما أفظع ذلك!»

فقلت وقد غلبني اليأس بسببٍ من إعوالها:

« ولكن حاولي ان تفهمي ، أيتها الاخت ، حاولي ان تفهمي . . . »

وكما يشتهي سوء الطالع ، نفدَ الكيروسين في جوف مصباحي الصغير ، فانبعث منه دخانٌ ، وأشرف نوره على الانطفاء ، وخفضت الكلاّبات العتيقة المغروزة في الحائط أبصارها في تبرّم ونكد ، وارتعشت ظلالها .

وقالت أختي وقد استوت قاعدةً :

« أشفِقْ علينا . إن اباك لفي ضنك فظيع ، وأنا مريضة . إني أكاد أجنّ . ما الذي سيحلّ بك ؟ »

ونشجَتْ وبسطت ذراعيها نحوي :

« أتوسل اليك ، أتضرع اليك ، إكراماً لأمنا الغالية ، أن تعود الى الدائرة ! »

فقلت ، وانا استشعر ان بضع كلمات أخرى خليقٌ بها ان تسقط في يدي وتحملني على الرضوخ :

« لا استطيع ، ياكليوباترة ! لا أستطيع ! »

فواصلت اختي حديثها :

« لمَ لا ؟ لمَ لا ؟ اذا كنتَ لا تستطيع التفاهم مع رئيس الدائرة ، فابحث عن وظيفة اخرى . لماذا لا تلتحق بوظيفة ما في السكة الحديدية ، مثلاً ؟ كنتُ اتحدث الى آنيوتا بلاغوفو منذ لحظة . ولقد صرحت لي بانها مستعدة للذهاب معك في السكة الحديدية ، بل لقد وعدت بأن تبذل جهدها في البحث عن وظيفة لك . كرامةً لله ، يا ميسيل ، فكّرْ قليلا ! إني اتوسل اليك ان

تفكّر قليلا ! »

وتحدثنا شيئاً ما بعد ذلك ، ثم القيت سلاحي مستسلماً . لقد قلت إن فكرة الحصول على وظيفة في السكة الحديدية التي كانت قيد الانشاء لم تخطر ببالي قط ، وإنني مستعدّ ، إذا كان ذلك يرضيها ، للقيام بهذه التجربة .

وابتسمت جذلةً من خلال عبراتها ، وضغطت على يدي ، ثم مضت في إعوالها بعد ان تعذّر عليها الكف عن البكاء والنحيب ، فيما قصدت انا الى المطبخ التماساً لشيء من الكيروسين .

٢

كان آل آزوغين القاطنون في منزلهم الخـــاص في شارع دفوريانسكي الكبير في مقدمة المناصرين للمسرحيات التي يمثلها الهواة ، والحفلات الموسيقية ، واللوحات الحية * المرصود ريعها للاعمال الخيرية . كانوا يقدّمون القاعة دائماً ، ويهيئون الأسباب لأخراج تلك المشروعات وإنجاحها ، ويتحملون نفقاتها كلها . وكانت تلك الاسرة من مالكي الارض الاثرياء ، وكانت لها إقطاعة في الريف تبلغ مساحتها نحـــواً من تسعة آلاف أكر ، وبيت معجبٌ رائع . ولكنهم ما كانوا يبالون بالريف ، فهم يقضون اشهر الشتاء والصيف جميعاً في البلدة . وكانت الاسرة مؤلفة من

* يقصد باللوحات الحية Tableaux vivants تلك المشاهد التصويرية التي يقوم بها جماعـة من الممثلين والممثلات ـ يقفون على خشبة المسرح صامتين غير متحركين تعبيراً عن فكرة ما . [المعرب]

الأم ، وهي سيدة فارعة الطول ، مهزولة الجسم ، رقيقة الحاشية ، ذات شعر قصير وسترة قصيرة ، وتنورة تبدو في عين الرائي باهتة ناصلة مفصلة على الطريقة الانكليزية ، وثلاث بنات كنّ لا يُدعين بأسمائهن ولكنْ بصفاتهن المؤذنة بترتيب ولادتهن ، هكـــذا : الكبرى ، والوسطى ، والصغرى . وكانت لهن جميعاً ذقون مستدقة بشعة ، وعيون مصابة بقصر النظر ، واكتاف مقوسة . وكنّ يلبسن كما تلبس أمهن ، ويلثغن على نحوٍ مَقيت ، ومع ذلك فقد كنّ يشتركن في كل حفلة اشتراكاً موصولاً ، ويقمن ابداً بعملٍ ذي طابع خيريّ ، سواء أكان تمثيلاً ، أم تلاوةً ، أم غنـــاءً . وكنّ يأخذن انفسَهن بالجد البالغ ، فلا تفترّ شفاههن عن ابتسامة ابداً ، وحتى حين يشتركن في أداء ملهـــاة موسيقيـــة كن يقمن بأدوارهن من غير ما اثرة من ابتهاج ، وفي سيما أشبه بالسيما التجارية ، وكأنما هنّ منهمكات في ضبط الحسابات وتـــدوين الارقام .

ولقد أحببتُ مسرحياتنا ، وبخاصة تلك الأعادات الكثيرة ، الضاجة ، غير المترابطة ، التي كانت مضيفاتنا يتبعنها دائماً بعشاء . ولم تكن لي ، في اختيـــار الروايات وتوزيع الأدوار يد البتـــة . وكان العمل المنوط بي يضطرني الى البقاء وراء الستـــار . كنت ازخرف المسرح وأرسم ضروب الصور عـــلى جدرانه ، وأنسخ أدوار الممثلين ، وأقوم بدور الملقن ، وأموّه وجوه الممثلين . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانوا يعهـــدون اليّ في أداء مختلف الاصوات التي تقتضيها المسرحية ، من مثل هزيم الرعد ، وتغريد

البلابل . واذ لم تكن لي وظيفة اجتماعية محترمة ، ولم تكن على جسدي ثياب لائقة ، فقد كنت اجتنب الاتصال بالقوم اثناء الأعادات ، بأن أرابط خلف جدران المسرح ، واعتصم بصمت حييّ .

وكنت اقوم بزخرفة جدران المسرح ورسم مختلف التصاوير عليها في فناء البيت — بيت آل آزوغين — أو عنبره . وكان يعاونني في ذلك آندراي إيفانوف ، وهو دهّان منزلي أو مقاولٌ — كما يدعو نفسه — مختصّ بزخرفة المنازل على اختلاف ضروبها. وكان آندراي هذا رجلا فارع الطول ، شديد الهزال ، شاحب الوجه ، في الخمسين من عمره ؛ وكان ذا صدر أجوف ، وصدغين غائرين ؛ تطوّق عينيه حلقتان زرقاوان ، ويوقع النظر اليه الرعب في النفس . وكان مصاباً بمرض داخليّ ما ؛ وفي كل ربيع وكل خريف كان الناس يقولون إنه لن يُبلّ من مرضته هذه ، ثم لا تنقضي فترة حتى يغادر الفراش ويقول في دهش :

« لقد نجوت من الموت كرّةً أخرى . »

وفي البلدة ، كانوا يدعونه راديش ، ويعلنون أن ذلك هو اسمه الحقيقي . وكان مولعاً بالمسرح بقدر ولوعي أنا ، فلا يكاد يسمع بأن رواية ما سوف تمثّل قريباً حتى يطرح اعماله كلها ويهرع الى منزل آل آزوغين لاعداد جدران المسرح .

وفي اليوم الذي تلا حديثي مع شقيقتي ، عملت في منزل آل آزوغين من الصباح حتى المساء . كانت الساعة السابعة بعد الظهر قد حُدّدت موعداً للقيام بالاعادة ، وقبل ان يحين ذلك الميقات

اجتمع افراد كلهم في القاعة ، وانشأت بنات آزوغين الكبرى والوسطى والصغرى يذرعن المسرح جيئة وذهوباً ، ويقرأن من مخطوطات كانت في أيديهن . وكان راديش قد وقف مسنداً رأسه الى الجدار ، محدقاً في سيما ورعة الى المسرح ، وقد ارتدى معطفاً طويلاً أحمر ضارباً الى لون الصدأ ، وطوّق عنقه بوشاح أو شال . وتقدّمت السيدة آزوغين من الضيوف واحداً بعد واحد ، وقالت لكلٍّ كلاماً جميلاً . كانت لها طريقة في التحديق الى وجه المرء ، والتحدث اليه في نعومة بالغة وكأنما تهمس في أذنه بسرّ .

وفي جرسٍ دقيق قالت لي :

« ينبغي ان تكون زخرفة المسرح عملاً عسيراً . فقد كنتُ أتحدث الى السيدة موفكه عن الخرافات حين رأيتك تدخل . يا الهي ، لقد قضيتُ حياتي كلها وانا معلنةٌ الحرب على الخرافات . ولكي أقنع الخدم بأن مخاوفهم هراء محض ، أشعل دائماً ثلاث شموع ، واستهلّ أعمالي الهامة في اليوم الثالث عشر من الشهر . »

وأقبلت ابنة دولزيكوف ، وهي ممتلئة الجسم ، متوسطة الجمال ، ترتدي كما يقول الناس ملابسَ كلها مستورد من باريس . انها لم تشترك في التمثيل ، ولكن المضيفات كنّ يضعن لها ، عند الأعادات ، كرسياً على المسرح ، ولم يكن التمثيل ليجري إلا بعد ان تبرز في الصف الامامي ، باهرةً بصرَ كل امرىء بثيابها الجميلة البارعة . وبوصفها ثمرةً من ثمرات العاصمة أجيز لها ان تبدي بعض الملاحظات اثناء الاعادات . فكانت تفعل ذلك في ابتسامة عذبة سمحة ، وكان في ميسور المرء ان يرى أنها تنظر الى تمثيلنا

نظرتها الى تسلية صبيانية . ولقد قيـــل انها درست الغنـــاء في كونسرفاتوار بطرسبرج ، بل لقـــد قيل إنها غنت طوال الشهر الشتاء ، في عام من الاعوام ، في احدى دور الأوبرا الخاصة . ولقد حسبتها فاتنة جداً ، فكنت اراقبها اثناء الاعادات والحفلات من غير ان أرفع عينيّ عنها .

وكنت قد أمسكت بخطوطي لأقوم بدور المقنن عندما وفدت اختي ، فجاءة ، على القاعة . ومن غير ان تنتزع معطفها او قبعتها أقبلت عليّ وقالت :

« تعال ، أتوسل اليك ! »

وذهبت معها . وكانت آنيوتا بلاغوفو ، وقد اعتمرت هي الأخرى بقبعة وأسبلت حجاباً داكناً ، واقفة خلف جدران المسرح ، عند الباب . كانت ابنة رئيس المحكمة المساعد ، الذي شغل ذلك المنصب ، في بلدتنا ، منذ إنشاء المحكمة الطوافة تقريباً . واذ كانت طويلة القامة ، مليحة الوجه ، فقد كان القوم يعتبرون مساعدتها أمراً لا يستغنى عنه في « اللوحات الحية » . وكانت اذا ما نهضت بأداء مشهدٍ يمثل جنية أو شيئاً كالمجـــد التهب وجهها بالخجل . ولكنها لم تكن تشارك في الروايات التمثيلية ، فهي تحضر الأعادات لحظة ليس غير ، أداءً لمهمة خاصة ، ولا تقد على القاعة . وكان واضحاً ، الآن ، ايضـــاً ، أنها أقبلت على المكان منذ دقيقة واحدة .

وقالت في جفاف ، وقد شاع الدم في وجهها ، ولم تدع عينيها تقعان عليّ :

« كان والدي يتحدث عنك . لقد وعد دولژيكوف بأن يسند إليك وظيفة في السكة الحديدية . إتصل به غداً . إنه سيكون في منزله . »

وانحنيت وشكرتها لما جشمت نفسها من عناء .

وقالت وهي تومىء الى مخطوطة المسرحية :

« وفي استطاعتك الآن ان تطّرح هذه . »

ومضت هي وشقيقتي الى السيدة آزوغين ، وطوال دقيقتين همستا شيئاً في أذنيها ، وهنّ ينظرن اليّ . كنّ يتشاورن في أمر ما .

وقالت السيدة آزوغين ، وهي تقترب نحوي في رفق وتنعم النظر في وجهي :

« أجل ، حقاً ! أجل حقاً إذا كان هـــذا يصرفك عن المهام الجدية . . . »

وأخذت المخطوطة من بين يديّ ، ثم اردفت :

« في استطاعتك ان تسلمها الى امرىء آخر ، لا تبتئس ، ايها الصديق . اذهب الى البيت ، وليكن الحظ السعيد حليفك . »

وودعتها ، ومضيت وقد استولى عليّ التشوش والاضطراب وفيما أنا اهبط السلم رأيت أختي وآنيوتا بلاغوفو تمضيان لسبيلهما كانتا تومسان الخطى ، وهما تتحدثان في همة عن شيء ما ، لعله ان يكون دائراً حول مسألة التحاقي بمصلحة السكة الحديدية . ولم تكن اختي قد شهدت أياً من إعداداتنا التمثيلية من قبل ، وأغلب الظن انها تعاني الآن وخزاً ضميرياً عنيفاً ، وأنها تخشى ان يكتشف

أبوها وفودها ، من غير اذنه ، على بيت آزوغين !

وفي اليوم التالي ذهبت الى منزل دولزيكوف في ما بين الثانية عشرة والواحدة . فقادني الخادم الى غرفة جميلة جداً كان المهندس يتخذ منها ردهةً للاستقبال ومكتباً للعمل في آنٍ معاً . كان كل شيء ، ههنا ، ناعماً انيقاً ، مما جعل المكان يبدو في نظري ـ أنا الذي لم آلف الترف أو أتعوده ـ غريباً حقاً . كان ثمة سجاد ثمين ، وكراسي ضخمة ذات اذرع ، وتماثيل برونزية ، وصور فنية ، وأطر ذهبية ومخملية . وبين الصور المنثورة على الجدران كانت نساء رائعات الجمال ، ووجوه بارعة مليحة ، وأوضاع طبيعية . وكان لردهة الاستقبال هذه باب يقود الى شرفة تطل على الحديقة . وهناك يستطيع المرء ان يرى الى شجر الليلنج ، والى مائدة مدت استعداداً للغداء ، وعدد من الزجاجات ، وباقة ورد . وكان يفوح من الحديقة عبير الربيع والسيجار النفيس الغالي الثمن ، عبير السعادة ـ وكل شيء بدا وكأنما يقول : « ههنا رجل عاش وعمل ، ثم كسب آخر الامر أقصى السعادة الممكنة على ظهر الارض . » وكانت ابنة المهندس جالسةً الى منضدة الكتابة ، تقرأ صحيفة .

وسألتني :

« لقد أقبلت لترى ابي ؟ انه يبترد في الحمام ؛ والسرف يوافيك الى هنا مباشرةً . تفضل فاجلس وانتظر . »

وقعدْت .

وسألتني بعد صمت قصير :

« احسب انك تسكن تجاهنا ؟ »

ـ « أجل » .

ـ « اني لاستشعر السأم الى درجة تحملني على ان أراقبك كل يوم من خلال النافذة ، فينبغي لك ان تعذرني ... »

ثم انها استطردت ، وهي تنعم الطرف في صحيفتها :

« وكثيراً ما ارى اختك . ان وجهها لتعلوه دائماً سيما من الطيبة والتفكير المركز . »

وأقبل دولزيكوف . كان يفرك رقبته بمنشفة .

وقالت ابنته :

« بابا ، السيد بولوزنيف . »

فالتفت نحوي في رشاقة وقال من غير أن يمد يده اليّ :

« أجل ، أجل ، لقد حدثتني بلاغوفو عن ذلك . ولكن اسمع ، ما الذي استطيع أن أقدمه اليك ؟ ما المناصب التي عندي ؟ انكم مجموعة عجيبة من الناس ! »

وهنا ارتفع صوته وكأنما كان يتلو عليّ محاضرة :

« إن عشرات منكم يفدون علي كل يوم . انتم تتخيلون أنني رئيس دائرة من الدوائر ! انني أنشىء خطاً حديدياً يا أصدقائي . وليس عندي مجالٌ لغير العمل الشاقّ المرهق : أنا في حاجة الى ميكانيكيين ، وحدادين ، ونجارين ، وعمالٍ لشق القنوات ومد السكك . وعمال يغوصون في الآبار ، وليس أيٌ منكم بقادر على ان يعمل شيئاً غير العقود والكتابة ! انتم جميعاً موظفون مكتبيون . »

وبدا لي أن سيما السعادة التي تطفو على سجاده وكراسيه

الوثيرة تطفو على صفحة وجهه ابيضاً . كان بديناً ذا نشاط وعزم ، أحمرَ الوجنتين واسع الصدر ، وكان يلبس قميصاً قطنياً مطبّعاً وبنطلوناً طويلا فكأنه دمية من خزف صيني تمثل سائق عربة من عربات التزلج على الثلج . كانت له لحية جعدة مستديرة ليس فيها شعرة بيضاء واحدة ـ وأنفٌ أعقف . وعينان سوداوان صافيتان لا تعرفان المكر .

وأردف قائلا :

« ماذا تستطيع ان تعمل ؟ ليس ثمة ما تستطيع ان تعمله ! أنا مهندس . انا رجل ذو مركز راسخ ، ولكنْ قبل ان يعهدوا اليّ في امر السكة الحديدية سلختُ عدة سنوات وانا رازح تحت النير . كنتُ ميكانيكياً عمليـــاً ، واشتغلت سنتين في باجيكا بوصفي مزيتَ آلات . في ميسورك ان ترى بنفسك ، ايها الصديق العزيز ، اي ضرب من العمل أستطيع ان أقدمه اليك ؟ »

فغمغمتُ في اضطراب بالغ ، وأنا عاجز عن أن أنظـــر الى عينيه الصافيتين :

« طبعاً ، هذا هو الواقع . . . »

ثم سألني بعد لحظة من التفكير :

« هل تستطيع أن تقوم بعملٍ ما في حقل التلغراف ؟ »

ـ « أجل ، لقد كنتُ مأمور تلغراف . »

ـ « همْمْ ! حسناً ، سوف نرى اذن . وفي الوقت نفسه ، إذهب الى دوبتشنيا . إن عندي رجلا هناك ، ولكنه محـــلوق بائس . »

فسألته :

« ومم سوف تتألف مهمتي ؟ »

ـ « سوف نرى . إذهب الى هناك . وفي الوقت نفسه سوف اتخذ مختلف الترتيبات . كل ما اسألك إياه هو أن لا تعاقر الخمر ، ولا تزعجني بالمطالب مهما يكن نوعها وإلا أمرتك بحزم أمتعتك . »

واشاح بوجهه عني ، من غير ان يجاملني ولو بهزة من رأسه .

وانحنيت له ولابنته التي كانت تطالع احدى الصحف ، ومضيت لسبيلي . وران الغم على فؤادي ، حتى لقد تعذر عليّ ـ حين سألتني اختي عن كيفية استقبال المهندس لي ـ أن أفوه بكلمة واحدة .

ونهضت في اليوم التالي ، مع الفجر ، لأشخص الى دوبتشنيا . لم يكن ثمة انسان في شارع دفوريانسكي الكبير . كان كل امرىء نائماً ، وكان وقع خطواتي يتردد مستوحشاً غائراً . وكانت شجرات الحور ، المغطاة بالندى ، تملأ الجو بريا رقيقة . وكنت انا محزون الفؤاد ، غير راغب في مغادرة البلدة . كنت مولعاً بسقط رأسي ذاك ، ولقد بدا لي جميلا جداً ، ومريحاً جداً ! لقد احببت الحضرة الغضة ، والصباح الساكن المشمس ، وأحببت أنغام اجراسنا . ولكن الناس الذين عشت معهم في هذه البلدة كانوا يوقعون الملل في النفس . كانوا غرباء عني ، بل بغيضين اليّ في بعض الاحيان ، انا لم احبهم ولم افهمهم .

لم اكن افهم لاي شيء يعيش هؤلاء الخمسة والستون الفاً من الناس ، وبأيّ شيء . لقد عرفت ان « كيمري » تعيش على الاحذية ،

وان «تولا» تعمل ضروب السماورات والبنادق، وان «أوديسا» مرفأ، ولكن اي شيء كانت بلدتنا، وما الذي تعمله؟ - ذلك ما جهلتهُ . كان شارع دفوريانسكي الكبير، والشارعان الآخران المتأنقان تعيش على الربا العائد من رأس المال، أو على الرواتب التي يقبضها الموظفون من الخزانة العامة . ولكن عـــلام كانت تعيش الشوارع الثانية الاخرى، الممتدة في خطوط متوازية ميلين اثنين او اكثر، والمتلاشية خلف الكثبان؟ ذلك لغز لم اجد له أبدا حلّ في يوم من الايام . والحق ان المرء ليستحيي من ان يصف كيف كان هؤلاء القوم يحيون! لا حديقة، ولا مسرح . ولا جوقة موسيقية لائقة . كان الشبان اليهود هم وحدهم الذين يرتادون المكتبة العامة ونادي المكتبة، ومن هنا ظلت المجلات والكتب الجديدة، أشهراً واشهراً، أبكاراً لم تفتضها يدٌ . وكان الاغنياء والمثقفون ينامون في حجرات ضيقة فاسدة الهواء، فوق سُرر خشبية يسرح فيها البق . وكان اولادهم يحتجـــزون في غرف قذرة، الى حدّ يثير الاشمئزاز، يدعونها حجرات الاطفال، وكان الخدم - حتى الكبار منهم والمحترمون - ينامون على ارض المطبخ المفروشة بالبُسُط . وفي الايام العادية، كانت رائحـــة شورباء الشمندر تفوح من المنازل، على حين كانت تفوح منها في ايام الصوم رائحة الدُخس * المطبوخ بزيت دوّار الشمس . كان الطعام غير صالح، ومياه الشفة غير صحية . وفي المجلس البلدي، ولدى الحاكم، وفي مقرّ كبير الكهنة، وفي جنبـات البيوت

* الدخس (sturgeon) ضرب من السمك .

الخاصة جميعها سلخ الناس سنواتٍ وسنوات وهم يقولون ان بلدتنا لا تنعم بمياه صالحة ورخيصة ، وان من الضروريّ الحصول على قرضٍ مقداره مئتا الف روبل من خزانة الدولة لجرّ المياه . وكان القوم البالغو الثراء ، الذين كان في ميسور المرء أن يحصي ثلاث دزينات منهم في بلدتنا ، والذين كانوا يخسرون في بعض الاحيان إقطاعاتٍ برمتها ، في المقامرة ، يشربون من تلك المياه الملوثة ايضاً ، ويتحدثون طوال حياتهم ، وفي كثير من الحماسة والاهتياج ، عن قرض لجرّ المياه ـ وما كنتُ لأفهم ذاك . لقد بدا لي ان من الايسر ان تؤخذ المئتا الف روبل من جيوبهم هم لتُنْفَقَ في هذا السبيل .

ولم اعرف في البلدة كلها رجلاً واحداً امينا . كان والدي يتقبّل الرّشى ، ويتخيل انها تُقدَّم اليه احتراماً لسجاياه الخلقية . وفي المدرسة الثانوية ، كان التلاميذ الراغبون في الانتقال من صفٍ الى صف في سرعة يَدْعون مدرّسيهم الى الطعام وينفقون عليهم مبالغ باهظة . وكانت زوجة القائد العسكري تأخذ الرشى من المجندين الجدد حين يمثلون امام المجلس ، بل تتلطف بقبول المنعشات منهم ، ولم توفق في احدى المناسبات الى الوقوف على قدميها ، في الكنيسة ، بسببٍ من السكر التي استبدّ بها . وكان الاطباء يرتشون ايضاً حين يفدُ المرشحون للجندية الى الفحص ، بينما كان طبيب البلدية والجراح البيطري يفرضون ضريبة نظامية على المطاعم ودكاكين الجزارين . وفي مدرسة الريف كانوا يتاجرون بالشهادات التي تعفي حامليها إعفاءً جزئياً من الخدمات

العسكرية . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان رجال الدين الكبار يتقبلون الرشى من الكهان الصغار وشيوخ الكنيسة . وفي البلدية وغيرها من الدوائر كان اصحاب الحاجات يسمعون هذه الصيحة دائماً : « لا تنسَ فروض الشكر ! » فيرتد الواحد منهم على عقبيه ويدفع شلناً او نصف شلن . اما اولئك الذين تورعوا عن قبول الرشى ، مثل كبار القضاة والموظفين في دوائر العدل ، فكانوا متغطرسين متشامخين ، لا يصافحون الناس ولكن يمدون اليهم اثنتين من اصابعهم ، ويتميزون بالبرودة وضيق الاحكام وجمودها ، وينفقون جزءاً كبيراً من وقتهم في المقامرة ، ويسرفون في الشراب ، ويتزوجون الوارثات ، ويؤثرون في من يحيط بهم تأثيراً مفسداً مهلكاً من غير شك . كانت الفتيات وحدهن يتمتعن بعبير الطهارة الخلقية الغض ، وكانت كثيرتهن تعمر قلوبها بأسمى العواطف وبقلوب صافية صادقة ، ولكنهن لم تكن لهن بالحياة معرفة . كن يعتقدن بأن الرشى تقدم الى المرء احتراماً لخلقه الرفيع . وكن اذا ما تزوجن ، أخذن سبيلهن الى الشيخوخة في عجل ، وتمرغن في حمأة الحياة البورجوازية التافهة المبتذلة .

٣

كان ثمة خط حديدي يمد في جوارنا . ففي عشية الأعياد كانت الشوارع تغص بجماعات ذات اعمال بالية يطلق عليها أهل البلدة اسم « عمال السكة الحديدية » ، ويوجسون منها خيفة . ومرة اثر مرة ، رأيت واحداً من هؤلاء الممزقي الثياب يساق ،

متضرجَ الوجه بالدم ، الى مركز البوليس ، وقد سار خلفه من يحمل سروراً أو قطعة من نسيج قطني لا تزال رطبة من أثر الغسل ، كدليل مادي على الجريمة . وكان العمال يحتشدون عادةً حول الحانات ، وساحة السوق . كانوا يشربون ، ويأكلون ، ويصطنعون لغة بذيئة ، يطلقون الصفرات الحادة في اثر كل امرأة ذات مسلك خفيف طائش تمرّ بهم . ولتسلية هذه الجماعات الجائعة كان اصحاب الدكاكين عندنا يُسكرون القطط والكلاب بالفودكا أو يشدون صفيحة كاز عتيقة الى ذنب كلبٍ ما ، وعندئذ تطلق صيحة عالية ، ويندفع الكلب في الشارع ، ساحباً الصفيحة المطقطقة ، صائحاً صياح الذعر والخوف . ذلك بأنه يتوهم أن غولاً ما يتعقبه ، فهو يعدو أقصى ما يكون العدو حتى يبلغ الريف ، ويخرّ على الأرض خائر القوى . وكان في البلدة عدة كلاب تمضي لسبيلها مرتجفةً وأذنابها بين أرجلها . ويذهب الناس الى ان هذا اللهو السمج كان أثقل من أن تطيقه تلك الكلاب ، فلم يترك لها صواباً .

وكانت محطة السكة تبنى على مبعدة اربعة اميال عن البلدة . ولقد قيل ان المهندسين طلبوا رشوة مقدارها خمسون الف روبل من اجل ايصال الخط الى البلدة نفسها ، ولكن المجلس البلدي لم يوافق على ان يعطيهم اكثر من اربعين الفاً . ولم يوفق الفريقان الى تسويةٍ للخلاف ، وها هم اهل البلدة اليوم نادمون على ذلك بعد ان تعيّن عليهم شقّ طريق الى المحطة ، وهو عمل سوف يكلفهم اكثر ، على ما قدّر المقدرون . وكانت العوارض الخشبية والقضبان الحديدية قد أقيمت طوال الخط ، فالقطر تصعّد فيها حيناً ،

وتهبطها حيناً ، ناقلةً مواد البناء والعمّال ، ولم يتأخر العمل بعد ذلك الا بسببٍ من الجسور التي كان دولزيكوف يبنيها . ولم تكن بعض المحطات قد تمّ انشاؤها بعد .

وكانت دوبتشنيا ، كما دُعيت محطتنا الأولى ، تبعد عن البلدة اثني عشر ميلاً او اقل قليلاً . وقصدت اليها مشياً على قدميّ . كانت حقول الحنطة ، المغتسلة بأشعـــة شمس الصباح ، خضراء زاهية . كان الريف منبسطاً بهيجاً ، وفي المدى البعيد بدت معالم المحطة ، وعربات النقل العتيقة ، والبيوت القصيّة . . . كم قد كان ذلك الفضاء الرحب جميلاً ! وكم قد تقتُ الى ان اتملّى بحسّ الحرية ، ولو في ذلـــك الصباح وحـده ، بحيث لا افكر في حاجاتي ، ولا استشعر اني جائـع ! ان شيئاً لم يشوّه وجودي قطّ مثل شعور حادّ بالجوع يجعـــل عصيدة الحنطـة السوداء والفطائر ، والسمك المخبوز تختلط صورها اختلاطاً غريباً بأحسن أفكاري . وها أنا ذا هنا أقف وحـدي في الريف الفضاء ، رافعاً بصري المحدّق الى قبرة تطوّف مرفرفة الجناح في المكان نفسه ، وترجّع الغناء وكأنما أصابها مسٌ من هستيريا . وفي تلك اللحظة قلت لنفسي : «ما اجمل أن انعم الآن بشطيرة من الخبز والزبدة!» وقد أقعد عند حافة الطريق التماساً للراحة ، وأغمض عينيّ لأستمع الى اصوات نوار العذبة ، فكان الذي يقلقني هو رائحة البطاطـــا الحارة . وعلى الرغم من اني كنت فارع الطول ، قويّ البنية ، فقد تعيّن عليّ دائماً أن اقنع بطعام قليل ، ومن هنا كان الاحساس الغالب عليّ طوالَ النهار هو الجوع ، ولعلّ هذا هو الذي جعلني

أدرك أحسن الأدراك كيف أن ملايين من الناس يكدحون لمجرد الحصول على خبزهم اليومي ، فهم لا يستطيعون ان يتحدثوا عن شيء غير الطعام .

وفي دوبتشنيا كانوا يجصصون جدران المحطة من داخـل ، ويبنون طابقاً خشبياً أعلى يتخذون منه سقيفة للضخ . كان الجو حاراً . وكانت رائحة الكلس تفوح ، وكان العمال يطوّفون في غير مبالاة بين رُكام النجارة وأكوام الحجارة والملاط . كان مدير الأشارات نائماً قرب كوخه ، وكانت الشمس تتوهج أشعتها على وجهه . لم تكن ثمة شجرةٌ واحدة . وكانت اسلاك البرق تهمهم في وهن ، وقد جثم البزاة عليها ههنا وهناك . وفيما كنتُ ، انا ايضاً ، أطوّف وسط ركام القاذورات ، غير عالمٍ ما الذي ينبغي ان اعمله ، ذكرتُ ان المهندس قال لي ساعة سألته عن نوع المهمة التي سيعهد اليّ فيها : « سوف نرى حين تذهب الى هناك » . ولكن ما الذي يستطيع المرء ان يراه في هذه البرية القفر ؟

وتحدّث الجصاصون عن الناظر وعن رجل يدعى فيودوت فازيلييف . ولم أفهم ما يقولون ، وشيئاً بعد شيء غلب عـليّ الانحطاط الجسمي الذي يحسه المرء في ذراعيه وقدميه وجسده الضخم ، وليس يدري ما الذي يفعله بها أو اين يضعها .

وبعد ان طوّفتُ طوال ساعتين اثنتين على الاقل ، لاحظتُ ان ثمة اعمدة تلغراف تنتصب الى يمين المحطة لتنتهي الى جـدار حجري ابيض قائم على مبعدة ميل أو ميل ونصف . واخبرني

العمال ان المكتب يقع هناك ، فأدركت آخر الامر ان ذلك هو المكان الذي يتعين عليّ ان أقصد اليه .

كان منزلاً اقطاعياً عتيقاً جداً ، هجره اصحابه منذ عهد طويل . وكان الجدار الذي يحيط به ، وقد أقيم من حجر أبيض ذي مسامّ ، قد بلي وتداعى الى السقوط ، بل لقد سقطت اجزاء منه في مواضع . وكان البناء الصغير الملحق بذلك المنزل ، والذي كان جداره الابيض يُطلّ على الريف الطلق ، ذا سطح صدئ مرقعٍ برقاقات الصفيح الموضة ههنا وههناك من فوقه . وضمن الابواب ، كان في ميسور المرء ان يرى فِناءً رحباً تكسوه أعشاب خشنة ، ومنزلاً اقطاعياً عتيقاً ذا نوافذ مزوّدة بواقياتٍ من أشعة الشمس ، وسطح عالٍ احاله الصدأ الى الاحمرار . وعلى جانبي المنزل ، من يمين وشمال ، نهض بيتان صغيران متماثلان تماماً . كانت نوافذ أحدهما مسمّرة بألواح خشبية . على حين نشرت قريباً من الآخر ، المُشْرَع النوافذ ، بعض الثياب المغسولة . وطوّقت مجموعة من العجول . وكان آخر عمود من أعمدة التلغراف منتصباً في الفناء ، وكان السلك يمتد منه الى نافذة البيت الصغير الذي كان جداره الابيض يطل على الريف الطلق . كان الباب مفتوحاً فدخلت . والى جانب جهاز التلغراف ، كان رجلٌ ذو شعر فاحم جعد ، مرتدٍ سترة قصيرة مصنوعة من قماش الاشرعة ، جالساً الى احدى الطاولات . وحدجني بنظرة نكدةٍ من تحت حاجبيه ولكنه ما لبث ان تبسّم وقال :

« هالو ، يا احسن من لا شيء ! »

كان ذلك الرجل هو ايفان تشيبراكوف ، وكان رفيقاً لي في المدرسة ، وقد طرد من الصف الثاني بسببٍ من التدخين . ولقد اتى علينا حينٌ من الدهر كنا ننطلق فيه ، ايام الخريف ، فنلتقط الحساسين والبراقش والزقيقيات ، ثم نبيعها ، مـــع الضحى ، في السوق ، فيما يكون آباؤنا راقدين — ما زالوا — في فرشهم . وكنا نترصد اسراب الزرازير المهاجرة ، ونصيدها بالرصاص الصغير ، ثم نلتقط الجرحى منها ، فيموت بعضها بين ايدينا بعد ان تعاني من الآلام اشدّها (وانا اذكر الى اليوم كيف كانت تئن في القفص ، في موهن من الليل) ؛ وكنا نبيع الزرازير التي تتغلّب على الموت ، مقسمين في وقاحة قصوى انها ذكورٌ كلها . وذات يوم بعت في السوق جميع الزرازير الا واحداً ، عرضتُه على المشترين فلم يرتضِ احدٌ شراءه ، حتى بعته أخيراً بفلس واحد . وحـــين وضعت ذلك الفلس في جيبي قلت معزياً نفسي : « على أية حال ، انه احسن من لا شيء . » ومن ذلك الحين صار صبيان الازقـة وتلامذة المدارس يتبعونني صائحين : « احسن من لا شيء! » وحتى هذا اليوم لا يزال غلمان الشوارع واصحاب الدكاكين ينادونني ، ساخرين ، بهذا اللقب ، على الرغم من ان احداً منهم ليس يذكر كيف نشأ .

ولم يكن تشيبراكوف ذا بنية صحيحة . كان هزيل الصدر ، مقوّس الكتفين ، طويل الرجلين . وكان يتخذ من حبلٍ حريريّ ما رباطاً لعنقه ، ولا يرتدي صدرية البتـة . وكان حذاؤه أسوأ من حذائي ، وكان كعباه مبريين من جانب واحـد . وكان من

دأبه ان يحدّق الى الناس من غير ان تطرف عينه او تكاد، تحديقاً متوفزاً وكأنه على وشك ان يقبض على شيء . وكان أبداً في شبه اهتياج عصبيّ .

كان يقول في جلبة لا مبرر لها :

« انتظر دقيقةً ... إسمع قليلا ... عمّ كنت التحدث ؟ »

واخذنا بأطراف الحديث . وفهمت منه ان تلك الاقطاعة كانت حتى وقت قريب ملكاً لآل تشيبراكوف ، وانها انتقلت منذ الخريف الماضي فقط الى يد دولزيكوف الذي رأى ان استثمار امواله من طريق الأرض أعود عليه من ابقائها اوراقاً نقدية ، والذي كان قد اشترى ، قبل ذلك ، ثلاث اقطاعات مرهونة واسعة في جوارنا . وفي تلك الصفقة ، احتفظت والدة تشيبراكوف لنفسها بحقّ الحياة طوالَ سنتين في احد البيتين الجانبيين ، وكفلت لابنها وظيفةً في المكتب .

وقال تشيبراكوف عن المهندس :

« احسب انه كان في ميسوره ان يشتري . أنظر اي شيء ينهبه من المتعهدين وحدهم ! انه يسلب كل انسان ! »

ثم دعاني الى تناول طعام الغداء معه ، مقرراً في حماسة انه ينبغي لي ان احيا معه في البيت الصغير ، وان آكل مما تقدمه الى امه .

وقال :

« انها شحيحة بعض الشيء . ولكنها لن تطلب منك تعويضاً مغالىً فيه . »

كانت غرف ذلك البيت ضيقة جداً ، وكانت جميعها ، حتى المجاز والمدخل ، غاصة بالاثاث المركوم بعضه فوق بعض ، والمنقول من البيت الكبير بعد بيعه . وكان الاثاث كله مصنوعاً من خشب الماهوغاني ، على الطراز العتيق . وكانت السيدة تشيبراكوف ، وهي امرأة في خريف العمر ، بدينة جداً ، ذات عينين صينيتين منحرفتين ، جالسة على كرسي ضخم ذي ذراعين ، الى جانب النافذة ، تحوك جوربا من الجوارب . ورحبت بي في احتفال شديد .

وقدمني تشيبراكوف اليها قائلاً :

« ماما ، هذا هو بولوزنيف . انه سوف يشتغل هنا . »

– « هل أنت نبيل من النبلاء ؟ » كذلك سألتني في صوت غريب مقيت . لقد بدا لي وكأن مقداراً من الدهن كان يفور في حنجرتها .

واجبتها :

« أجل . »

– « إجلس . »

كان الغداء هزيلا . لقد تألف من فطائر محشوة بابن خاثر مر ، وشوربا الحليب ليس غير . وكانت ايلينا فيكيفوروفنا ، التي ترأست المائدة ، لا تني تغمز على نحو غريب بأحدى عينيها حيناً ، وبالأخرى حيناً . لقد تحدثت ، وأكلت ، ومع ذلك فقد كان يرين على وجهها شيء شبيه بالموت ، حتى ليخيّل الى المرء ان رائحة جيفةٍ طفيفةً تنبعث من جسمها . لم يكن فيها غير ومضة من

ومضات الحياة ليس غير ، ومضة وعيٍ لهذه الحقيقة : وهي انها كانت في يوم مضى سيدةً لها أرقاؤها الخصوصيون ، وانها كانت ارملة قائد عسكري برتبة لواء كان خدمه ينادونه بقولهم : « يا صاحب السعادة » . وكان من دأبها ان تقول لابنها ، حين تلتمع آثار هذه الحياة الواهنة فيها لحظةً ما :

« جان ، انت لا تمسك بسكينك كما ينبغي ! »

او تقول لي ، وهي تأخذ نفساً عميقاً ، وعلى وجهها سيما مضيفة تتأنق وتحاول اكرام زائرها وايهاجه :

« انت تدري أننا بعنا اقطاعتنا . هذا شيء مؤلم طبعاً ، بسبب من أننا ألفنا ذلك المكان واعتدناه . ولكن دولزيكوف وعد بأن يعيّن جان رئيساً لمحطة دوبتشنيا ، وهكذا لن نُضطر الى الرحيل . سوف نحيا هنا في المحطة ، فكأننا نحيا في ملكنا الخاص حقاً ! إن المهندس بالغ اللطف ! ألا تعتقد انه ظريف جداً ؟ »

وحتى وقت قريب كان آل تشيبراكوف يحيون حياةً باذخة . ولكنْ ما إن قضى الجنرال نحبه حتى تغيّر كل شيء . لقد ألفت إيلينا فيكيفوروفنا الخصام مع جيرانها ، والذهاب الى المحاكم ، والتخلف عن دفع رواتب جباتها وعمالها . كانت في ذعرٍ موصول من ان تُسرَق ، وما هي الا عشر سنوات او نحوها حتى أمست دوبتشنيا غيرها بالامس يُنكرها الذين عرفوها من قبل .

وكانت خلف المنزل الكبير حديقةٌ قديمة توحّشت وتأبّدت ، وكستها الاعشاب الجافية والعواسج وضروب العلّيق . وذرعتْ

الشرفة جيئة وذهوباً ، وكانت لا تزال مكيفة جميلة . ومن خلال زجاج الابواب كان في ميسور المرء ان يرى الى غرفة فرشت ارضها بالفسيفساء ؛ لعلها ردهة الاستقبال . ولم يكن فيها شيء غير بيان من طراز عتيق ، وصور تحيط بها أطر من خشب الماهوغاني الداكن . وفي مساكب الزهور العتيقة لم يكن قد بقي غير زهرات الخشخاش ونبات عيد الصليب الرافعة رؤوسها البيضاء والحمراء الزاهية فوق العشب . وكانت شجيرات الاسفندان والدردار ، التي قضمت الابقار اوراقها ، قد نبتت الى جانب المجازات ، وقد تزاحمت بالمناكب وعاق بعضها نمو بعض . كانت الحديقة ملتفة الاشجار فهي تبدو وكأن السير فيها متعذر . ولكن ذلك يصح في اجزائها القريبة من المنزل ؛ ليس غير ، حيث انتصبت شجرات الحور ، والشربين ، والزيزفون العتيقة ، وكلها من عمر واحد ، وكلها أثر باقٍ من الجادات القديمة . وبعيداً خلف هذه الشجرات جردت الحديقة ليوضع فيها العشب المجفف ، وههنا لم يكن المكان رطباً حبيس الهواء ، ولم تكن أنسجة العناكب تعلق بفم المرء وعينيه . كان نسيم عليل يهب في الحديقة ، وكلما امعن المرء في السير غدت الارض اكثر انطلاقاً وانكشافاً . وههنا في البقعة الطلقة نهضت شجرات الكرز والخوخ والتفاح التي تشوهها الدعائم الخشبية ، والمواد الفطرية الضارة . كما نهضت شجرات الاجاص الفارعة الطول الى درجة تجعل من المتعذر على الانسان ان يصدق أنها شجرات إجاص . وكان هذا الجزء من الحديقة قد أجر لبعض اصحاب

الدكاكين في البلدة ، فكان يذود عنه غارات السُرّاق والزرازير فلاحٌ ضعيف العقل يسكن في كوخ قائم في جانب منه .

وكانت الحديقة ، الممعنة في الانفتاح حتى لتصبح مرجاً حقيقياً ، تنحدر نحو النهر الحافل بالعشب الاخضر ، وبضرب من شجر الصفصاف . وغير بعيد عن صدّ ماء الطاحونة ، كانت بركتها العميقة المليئة بالسمك . وكانت طاحونة صغيرة ذات سطح من طين وقشّ تعمل مطلقة صوتاً يتميز من الغيظ ، وكانت الضفادع تنقّ نقيقاً مغضَباً . وانداحت ، بين الفينة والفينة ، دوائر فوق سطح الماء الناعم ، الشبيه بالمرآة ، وارتعشت زنابق الماء وقد أثارها السمك الناضح حيويةً ونشاطاً . وعلى الجانب الاقصى من النهر قامت قرية دوبتشنيا الصغيرة . وكانت بركة الطاحونة الساكنة ، الزرقاء ، شديدة الاغراء بما تعدُ به من برد وسلام . وها قد انتهى كل اولئك — بركة الطاحونة ، والطاحونة ، والضفاف الظليلة — الى ان يصبح الآن ملكاً للمهندس !

وهكذا بدأ عملي الجديد . كنت أتلقى البرقيات وأرسلها ، وأضع مختلف التقارير ، وأعدّ نسخاً أمينة لمذكرات المطالب ، والشكاوى ، والتقارير التي يبعث بها الخدم والعمال الاميون . ومع ذلك فلم يكن لديّ ما اعمله ، معظمَ ساعات النهار ، غير ان اذرع الغرفة جيئة وذهوباً . ومن اجل ذلك كنت أكلف احد الفتيان بالبقاء في الغرفة لأنطلق الى الحديقة فأتمشى فيها حتى يأتيني الفتى قائلاً ان ثمة قرعاً على الآلة اللاقطة . وكنت اتناول طعام الغداء في بيت السيدة تشيبراكوف . ونادراً ما كنت

نطْعَم اللحم . فقد كانت صحوننا تحفل دائماً بالحليب ؛ وكانت ايام الاربعاء والجمعة ايام صوم ؛ وفيها كانت تُقدّم الينا اطباق قرنفلية تدعى اطباق الصوم الكبير . وكانت السيدة تشيبراكوف متي تغمز بعينيها — تلك كانت عادتها التي لا تتغيّر ؛ ولقد كنت دائماً استشعر في حضرتها الضيق والحرج .

واذْ لم يكن ثمة ، في ذلك المنزل الصغير ، عملٌ يكفي رجلا واحداً ، فلم يكن تشيبراكوف يأتي عملاً ما ، فهو ينفق الساعات ناعساً مهوّماً ، او منطلقاً ببندقيته الى بركة الطاحونة ليصيد البط فيها ، وكان يسرف في الشراب ، عندما يهبط الليل ، سواء في القرية او في المحطة ، ولا يأوي الى فراشه الا بعد ان يحدّق الى المرآة ويقول :

« هالّو ، ايفان تشيبراكوف ! »

وكان يرين على وجهه ، وهو ثمِل ، شحوبٌ شديد ، وكان يفرك يديه على نحو موصول ويضحك في صوت كالصهيل : « هيي-هيي-هيي ! » وكان من دأبه ، ان يخلع ثيابه ، على سبيل التباهي ، ويعدو في الريف عارياً . وكان يأكل الذباب ، ويقول انه حامض بعض الشيء .

٤

وذات يوم ، اقبل على البيت — بعد الغداء — لاهثاً منقطع النَفَس ، وقال :

« إذهبْ . لقد اقبلت اختك . »

وخرجت ، فوجدت عربة من عربات الاجرة واقفة عند مدخل المنزل الكبير . لقد اقبلت اختي بها ، من المدينة ، مع آنيوتا بلاغوفو ورجلٍ يرتدي سترةً عسكرية. حتى اذا اقتربت منهم اكثر عرفتُ ذلك الأخير : انه شقيق آنيوتا بلاغوفو ، طبيب الجيش .

وقال :

« لقد وفدنا عليك في نزهة . هل هذا حسن ؟ »

وارادت اختي وآنيوتا ان تسألا عن احوالي هنا ، ولكنهما كلتيهما اعتصمتا بالصمت ، واجتزأتا بالتحديق اليّ . واعتصمت انا بالصمت ايضاً . ورأتا انني ما كنتُ راضياً عن مُقامي في هذا المكان ، ففاض الدمع من عيني اختي ، وغدا لون آنيوتا بلاغوفو قرمزياً .

ومضينا الى الحديقة . ومشى الطبيب في مقدمتنا كلنا ، وقال في حماسة :

« ايّ هواء ! ايتها الأمّ المقدسة ، ايّ هواء ! »

كان لا يزال ، من حيث المظهر ، تلميذاً . ولقد كان يمشي ويتحدث وكأنه تلميذ ، وكانت سيما عينيه الرماديتين مثل سيما الطالب النجيب حدةً وصدقاً وصراحة . ولقد بدا ، الى جانب اخته الطويلة المليحة واهناً نحيلاً . وكانت لحيته نحيلةً ايضاً ؛ وكذلك كان صوته نحيلاً ولكنه ذو جَرْس سائغ . كان يؤدي فريضة الخدمة العسكرية مع احدى كتائب الجيش ، في مكان ما . ولقد وفدَ على مسقط رأسه ، في اجازة ، ليرى اهله ، وقال انه

شاخصٌ في الخريف الى بطرسبرج ليقدّم الامتحان الذي يخوله حمل لقب « دكتور في الطب » . وكان منذ الآن ربّ أسرة تتألف من زوجة وثلاثة اطفال . ذلك بأنه تزوج وهو غضّ الشباب ، يوم كان في السنة الثانية من سنيه الجامعية ، وإنّ ابناء البلدة ليقولون الآن انه غير سعيد في حياته العائلية ، وانه لا يحيا مع زوجته .

وتساءلت اختي في قلق واضطراب :

« كم الساعة ؟ يجب ان نعود باكراً . لقد اجاز « بابا » لي ان آتي فأرى اخي شرطَ ان اعود في السادسة . »

فتنهد الطبيب قائلاً :

« أوه ، دعينا من « البابا » الآن ! »

واشعلت السماور . ومددنا بساطاً امام شرفة المنزل الكبير ، وتناولنا الشاي هناك . وجثا الطبيب ، وانشأ يشرب من فنجانه قائلاً انه ادرك الآن معنى الهناءة والنعيم . ثم اقبل تشيبراكوف حاملاً المفتاح ، ففتح الباب الزجاجي ، ودخلنا كلنا الى البيت ، فاذا هو نصف مظلم يرين عليه جوّ من الغموض والرهبة ، وتفوح من جنباته رائحة نبات الفطر ، واذا بأقدامنا تُطلق وقعاً غائراً وكأن تحت غرفه اقبيةً وسراديب . وتمهّل الطبيب لحظةً ، ومسّ مفاتيح البيان ، فاستجابت واهنة بإيقاع أجشّ مرتعش ، ولكنه شجيّ . وجرّب صوته ، فانبرى يتغنى بأحدى الأغاني ، مقطباً ضارباً بقدمه في نزق ، حين تكون النوطة خرساء . ولم تشر اختي الى ضرورة العودة باكراً ، ولكنها تمشّت في الغرف

وهي ما تملّ القول :

« ما اعظم سعادتي ! ما اعظم سعادتي ! »

كان في صوتها نبرةٌ من الدهش ، وكأنها لم تستطع ان تصدق أن في ميسورها هي أيضاً ان تستشعر الحبور وانشراح الصدر . وتلك كانت اول مرة ، في حياتي ، اشهدها فيها سعيدةً الى هذا الحد . لقد بدت ، حقاً ، اجمل وأحلى . انها ما كانت ، في الوضع الجانبي ، مليحة الوجه . فقد تراءى أنفها وفمها وكأنهما ناتئان ، وبدا وجهها وكأن عليه انطباعة تجهّمٍ وعبوس . ولكنها كانت ذات عينين داكنتين جميلتين ، وبشرة شاحبة بالغة الرقة ، ومسحةٍ مؤثرةٍ من الطيبة والكآبة ، وكانت اذا ما تكلمت تبدو فاتنة بل جميلة . وكنت أنا وهي نشبه أمنا ، فنحن عريضا المناكب ، قويا البنية ، شديدا القدرة على الاحتمال ، ولكن شحوبها كان علامةً على سوء الصحة . وكان السعال كثيراً ما يستبّد بها ، ولقد لمحت في وجهها أحياناً تلك الاسارير التي يراها المرء عادة على وجوه المصابين بمرضٍ ذي خطر ولكنهم لسببٍ من الاسباب يخفون تلك الحقيقة . وكان ثمة شيء ساذج وصبياني في ابتهاجها ، الآن ، وكأنما المرح الذي كُبِت وخُنق في عهد طفولتنا ، من طريق التربية القاسية ، قد استيقظ فجأة في ذات نفسها ، واهتدى الى منفذٍ له طلق .

ولكن ما إن هبط الليل ، وفرض على الخيل ان تعود من حيث أتت ، حتى غرقت أختي في خضمّ الصمت ، وبدت نحيلةً متغضنة . ثم مضت الى العربة وكأنما تتخذ سبيلها الى المشنقة .

وحين انطلقت المركبة بهم ، وتلاشت آخر اصداءها ، ذكرت ان آنيوتا بلاغوفو لم توجه الي كلمة واحدة طوال النهار .

وقلت في ذات نفسي :

« يالها فتاة رائعة ! فتاة رائعة ! »

وأقبل صوم القديس بطرس فكنا نغتذي كل يوم من اطباق الصوم الكبير ليس غير . ورزحت تحت وطأة الانحطاط الجسماني بسبب من البطالة وعدم الاستقرار ، وغلب علي عدم الرضا عن نفسي . وفي حالي تلك من الخمول والجوع كنت ازجي اوقات الفراغ في الحديقة ، مرتقباً المزاج المناسب لاطراح هذه الوظيفة .

وحوالى المساء من ذات يوم ، بينا كان راديش جالساً في البيت الصغير دخل دولزيكوف ، فجاءة ، وقد أحرقت الشمس وجهه ، وعلاه الغبار . لقد أنفق ثلاثة ايام في إقطاعته ، ثم شخص الى دوبتشنيا بالزورق البخاري ، وتقدم نحونا من جانب المحطة . وفيما كان ينتظر عربته ، التي كان متوقعاً ان تفد عليه من البلدة ، انشأ يطوف في المكان مع ناظر الاقطاعة مُصدراً اوامره في صوت عالٍ ، ثم قعد ساعة كاملة في بيتنا الصغير قضاها في تحبير الرسائل . وفي تلك الاثناء وردته عدة برقيات ، فدق بنفسه الجواب عن كل منها . ووقفنا ثلاثتنا وقفة استعداد عسكرية صامتين .

وقال وهو يلقي نظرة ازدراء الى احد السجلات :

« اية فوضى هذه ! بعد اسبوعين سأنقل المكتب الى المحطة ، ولست ادري ما الذي سأعمله بكم ، ايها الاصدقاء . »

فقال تشيبراكوف :

« انا ابذل غاية جهدي ، يا صاحب السعادة ! »

واردف المهندس وهو ينظر اليّ :

« مؤكد ، انا ارى كيف تبذل غاية جهـــدك . إن الشيء الوحيد الذي تقدر على عمله هو ان تأخذ راتبك . انت تعتمد على الحمـــاية لكي تقوم بوظيفتك بأسرع واسهل ما يكون . حسناً ، انا لا ابالي بالحماية . إنّ احداً لم يجشّم نفسه عناءً ما من اجلي . ولقد اضطررت ، قبل ان يعهدوا اليّ في انشاء السكة الحديدية الى اعمل مزيّتا في بلجيكا . »

ثم انه التفت الى راديش وسأله :

« وانت ، بانتيلي ، ماذا تفعل هنا ؟ اتسكر معها ؟ »

كان من دأبه ، لسبب ما ، ان يدعو المستضعفين من النـاس باسم « بانتيلي » وكان يحتقر امثالي وامثال تشيبراكوف ويدعونا في وجوهنا سكيرين ، وبهائم ، وسفلة . وعلى الجملة فقد كان شديد القسوة على مرؤوسيه المساكـين ، وكان يفرض عليهم الغرامات ويطردهم في برود ومن غير ما ايضاح البتة .

واخيراً اقبلت الخيل . وفيما كان يودّعنا وعـدَ بطردنا جميعاً من العمل في مدى اسبوعين اثنين ، ووصف ناظر اقطاعته بالبلادة والحماقة . ثم انه اتكأ مسترخياً في عربته ، وانقلب عائداً الى البلدة .

وقلت لراديش :

« آندري ايفانيتش ، شغّلني معك كعامل . »

— « اوه ، حسن جداً . »

وانطلقنا في اتجاه البلدة . حتى اذا ابتعدنا عن المحطـة والمنزل

الكبير وملحقاته تساءلتُ :

« آندري ايفانيتش ، لماذا اتيتَ الى دوبتشنيا هذا المساء ؟ »

— « ان رفاقي ، اولاً ، يعملون على الخطّ الحديدي . ولقد اتيتُ ، ثانياً ، لكي ادفع الى امرأة الجنرال الفائدة المستحقة عليّ . ففي العام الماضي اقترضتُ خمسين روبلاً منها ، واني ادفع اليها الآن فائدة مقدارها روبل كل شهر . »

ووقف الدهقان واكرهني على ان اسمع له :

« ميسيل ألكسييتش ، يا ملاكنا . انا انظر الى المسألة هكذا : كل امريء ، من طبقة الاشراف كان أم من العامة ، يتقاضى اقلّ الربا او الفائدة ، إنما يأتي عملاً منكراً . ومثل هذا الانسان لا يمكن ان تنطوي نفسه على شيء من حبّ الحق او العدل . »

واغمض راديش — الهزيل ، الشاحب اللون ، المخيف الوجه — عينيه ، وهزّ رأسه ، ثم أردف في جَرْس فيلسوف من الفلاسفة :

« الحشرات تُهلك العشب ، والصدأ يهلك الحديد ، والكذب يهلك الروح . يا الـهي ، إرحمنا نحن الخاطئين . »

٥

لم يكن راديش رجلاً عملياً ، ولم يكن يحسن التقدير على الاطلاق . كان يرتضي من الاعمال فوق ما يستطيع انجازه ، حتى اذا فرغ لتقدير النفقات أخذه الاضطراب ، واضاع رشاده ، ومن هنا كانت اعماله خاسرةً دائماً ، أو تكاد . وكان يتولى اعمال الدهان ، والصقل ، وإلصاق الاوراق على الجدران ، بل يتولى

فرش السطوح بالآجر . وأذكر أنه طوّف ثلاثة أيام التمساً لعمال آجرّ ، يشغّلهم في عملٍ ليس بذي شأن . كان عاملاً من الطراز الاول ، وكان يكسب في بعض الاحيان نحواً من عشرة روبلات يومياً ، ولولا رغبته الجامحة في ان يكون ، بأي ثمن ، رب عمل ، وفي ان يدعى ملتزماً ، اذن لكان من الجائز ان يغدو صاحب ثروة .

كان يتقاضى مبلغاً اجمالياً على العمل ، ولكنه يدفع اليّ والى العمال اجورنا على اساس يومي ، يتراوح ما بين الشلن والبنسين ، وبين الشلنين ، يومياً . وكنا اذا ما صحا الجو وجف الهواء نقوم بضروب العمل الخارجي كلها وبخاصة دَهن السطوح . والحق ان رجليّ اشتغلتا باديء الامر وكأنني امشي على آجرّ لاهب ، حتى اذا لبست حذاءً من لبدٍ لم يزدهما ذلك إلا اشتعالاً . ولكني ما لبثت ان تعوّدت ذلك ، وغدا كل شيء سهلاً ميسَّراً . لقد كنتُ احيا الآن وسط جماعةٍ من الناس أُلزموا بالعمل إلزاماً ، فهو مفروض عليهم فرضاً ، ومحتّم تحتيماً ، جماعةٍ يعملون مثل خيل العربات ، وليس عندهم في الاعم الاغلب ايما فكرة عن قيمة العمل المثاقبية ، ولم يصطنعوا في يوم من الايام لفظة « العمل » في احاديثهم على الاطلاق . والى جانبهم استشعرت انا أيضاً وكأنني حصان عربةٍ ، وتعاظم شعوري يوماً بعد يوم بالصفة الالزامية الحتمية للعمل الذي اقوم به ، وهذا ما جعل حياتي اشد يسراً ، وحرّرني من كلّ شك وتردد .

في البدء كان كل شيء يثير فيّ الشوق والاهتمام . وكان كل شيء جديداً ، فكأنني وُلدت من جديد . كان في استطاعتي ان انام على الارض ، وان امشي حافياً ، وقد وجدت في ذلك متعة بالغة . كان في ميسوري ان اقف وسط حشد من العامة ، ولا اضايق احداً . حتى اذا سقط فرس من خيل العربات على الارض سارعت الى نجدته من غير ان اخشى تلويث ملابسي . واجمل من ذلك كله اني كنت احيـــا من عرق جبيني ، فلست عبـــئاً ثقيلاً على احد !

وكان دَهن السطوح ، وبخاصة بزيتنا والواننا ، يعتبر تجارة رابحة الى ابعد الحدود . ومن هنا لم ينظر الى ذلك العمل الخشن الرتيب نظرة ازدراء ، حتى من جانب العمال البارعـــين مثل راديش . فكان يذرع السطوح ، ببنطلون قصير ورجلين متعبتين ارجوانيتي المظهر ، محدّقاً مثل البجع ، وكثيراً ما كنت اسمعه يلهث لهاثاً شديداً ، فيما هو يُعمل فرشاته جيئة وذهوباً ، ويقول :

« ويلٌ لنا ، ويلٌ لنا نحن الخاطئين ! »

كان يطوّف في السطوح في خفة ورشاقة وكأنما يمشي على الأرض . وعلى الرغم من انه مريض شاحب كالجثة ، فقد كان نشاطه خارقاً العادة . كان يدهن قباب الكنائس من غير ان يستعين بصقالات خشبية ، وكأنه شاب غضّ العود ، مكتفياً بسلّم وحبل ، على الرغم من ان الوقوف على مثل هذا الارتفاع عن الأرض خليق به ان يوقع الرعب في القلوب . وكان من دأبـــه ان يتصدر هناك ، ويقول لغير ما سبب واضح :

« الحشرات تهلك العشب ، والصدأ يهلك الحديد ، والكذب يهلك الروح ! »

وقد يفكر احياناً في شيء ، ثم يجيب على افكاره هذه بصوت عال :

« كل شيء قد يحدث ! كل شيء قد يحدث ! »

وعند عودتي من العمل الى البيت ، كان جميع الناس الجالسين على المقاعد الخشبية امام ابواب منازلهم واصحاب الدكاكين والصبية واسيادهم يطلقون من ورائي ملاحظات ساخرة ، ترشح بالحقد ، وهذا ما اقضّ مضجعي ، باديء الأمر ، وبدا لي وحشياً فظيعاً .

وكيفما اتجهت كنت اسمعهم يقولون :

« احسن من لا شيء ! دهّان بيوت ! مغرة صفراء ! »

وكان اشد الناس امعاناً في ايذائي اولئك الذين كانوا حتى وقت قريب فقراء يكسبون خبزهم بالعمل اليدوي الشاق . وذات يوم ، كنت اجوز احد الشوارع الغاصة بالدكاكين ، حتى اذا انتهيت الى احد بائعي الخردوات الحديدية صبّ الماء عليّ وكأنما كان ذلك مصادفة . وفي مناسبة اخرى اندفع احدهم نحوي ، وفي يده عصا ، بينما اعترض سبيلي سمّاك عجوز اشتعل رأسه شيباً وهو يرمقني بنظرات مغضبة :

« لستُ آسفاً عليك ايها المجنون ! ولكني اسف على ابيك . »

ولسبب ما كان الارتباك يستبدّ بأصدقائي ومعارفي حين يلقونني . وكان بعضهم ينظر اليّ نظرته الى سمكة عجيبة او ابله

يثير الضحك . وكان بعضهم الآخر يستشعر الاسف عليّ ، في حين كانت طائفة ثالثة منهم لا تدري اي موقف ينبغي ان تقفه مني . وكان من العسير عليّ ان افهم ذلك كله . وذات يوم ، التقيت آنيونا بلاغوفو في طريق فرعية قرب شارع دفوريانسكي الكبير . كنت في سبيلي الى العمل ، وكنت احمل فرشاتين طويلتين ودلواً مليئاً بالدهان . ولم تكد آنيونا تراني حتى شاع الدم في وجهها وغدت بشرتها قرمزية اللون .

ثم انها قالت لي في عصبية ، وخشونة ، وفي صوت مرتجف ، ومن غير ان تمدّ اليّ يداً ، وقد التمعت العبرات فجأةً في عينيها :

« ارجو ان لا تنحني لي في الشارع . إذا كنتَ تحسب ان هذا كله ضروري فليكن ذلك . . . ليكن ذلك ، ولكني أتوسل اليك أن لا تجتمع اليّ ! »

لم اكن اقطن شارع دفوريانسكي الكبير ، ولكن في الضاحية مع حاضنتي القديمة ، كاربوفنا ، وهي امرأة عجوز دمثة الخلق ولكنها مكتئبة محزونة الفؤاد ، فهي تتكهن ابداً بشرٍّ ما ، وتخشى الاحلام كلها ، بل ترى في النحل والزنابير التي تلج غرفتها نذيراً بكروه سوف يقع وشيكاً . وكانت ترى ان صيرورتي عاملاً من العمال لا تؤذن بخير على الاطلاق .

كانت تقول وهي تهز رأسها في حسرة وتوجّع :

« لقد أتلفتَ حياتك ! لقد أتلفت حياتك ! »

وكان بروكوفي ، ابنها بالتبني ، وهو جزّار فظّ ، ضخم الجسم ، احمر الشعر ، في الثلاثين من عمره ، ذو شارب شديد

الخشونة ، يسكن معها في البيت الصغير . وكان اذا التقاني في المجاز يفسح الطريق لي في صمت يرشح بالاحترام ، واذا كان ثملاً يحييني بأصابعه الخمس جميعاً . ومن خلال الجدار الخشبي الحاجب كنت اسمعه – بعد تناوله طعام العشاء – يتنحنح ويتنهد فيما هو يرشف كأساً اثر كأس .

وكان ينادي أمه في صوت خفيض :

« ماما ! »

فتجيبه كاربوفنا ، التي كانت تحب ابنها بالتبني حباً جماً ، قائلة :

« ماذا تريد ، يا بني ؟ »

– « في استطاعتي ان أقدّم اليك شاهداً على محبتي ، ياماما . إني سوف أرعاك طوال سنوات شيخوختك في وادي الدموع هذا . حتى اذا متّ دفنتك على نفقتي . لقد قلت ذلك ، وفي ميسورك ان تصدّقي ما اقول . »

وكنت انهض من فراشي كل صباح ، قبل مطلع الشمس ، وآوي اليه في ساعة مبكرة . وكنا نحن ، دهاني البيوت ، نأكل كثيراً وننام قريري العيون . كل ما كنت اشكو منه ان فؤادي كان يخفق خفقاناً شديداً في الليل . ولم اكن لاتشاجر مع رفاقي في العمل . صحيح ان كلاماً جارحاً من مثل « اطفأ الله عينيك ! » او « لتأخذك الكوليرا » كان يسمع دائماً في اوساطنا ، ولكنا مع ذلك عشنا على اساس من المودة والصداقة مكينين . وكان الزملاء الآخرون يحسبون اني متشيّع لمذهب ديني ما ، ويطلقون بعض النكات الدمثة على حسابي ، قائلين ان ابي نفسه

قد انكرني وطردني ، ثم يضيفون الى ذلك إنهم نادراً مايقصدون هم انفسهم الى هيكل الربّ ، وان كثيراً منهم لم يجلسوا على كرسي الاعتراف منذ عشر سنوات . وكانوا يبررون اهمالهم ذاك بالقول إن الدهّان بين الناس اشبه ما يكون بالزاغ (القاق) الصغير بين الطيور .

وكان للرفاق ظنّ حسنٌ بي ، وكانوا يعاملونني في احترام. وواضحٌ ان احجامي عن الشراب وعن التدخين ، وانتهاجي في الحياة نهجاً هادئاً مطرداً قد اوقعا في نفوسهم اعظم الرضا والارتياح . ولكنهم صُدموا صدمةً بغيضة بسبب من عـــدم مشاركتي اياهم في سرقة الزيت ، وتخلّفي عن الذهاب معهم التماساً للبخشيش من اصحاب الممتلكات التي نعمل عليها . والواقع ان سرقة الزيت والدهان من ارباب العمل كانت عادة مألوفة عند دهاني البيوت ، ولم يكن يُنظر اليها بوصفها لصوصية . ومن عجبٍ ان رجـــلاً صالحاً قويماً مثل راديش ما كان يجد حرجاً في ان يختلس قليـلاً من الرصاص الابيض والزيت كلما رجع من العمل الى البيت . وحتى الزملاء الاجلاء الذين علت بهم السنّ والذين يملكون بيوتاً يقطنونها في الضاحية لم يستحيوا من التماس البخشيش . فكان ممـا يثير في نفسي الغيظ والخجل ان ارى الى الرجال يضون جماعةً لتهنئة شخصٍ غير ذي خطر ببدء عمل او باتمامه ، ويرفعون اليـه آيات الشكر ، في عبودية مُذلة ، حين ينالون منه بعض القطـع النقدية النحاسية .

وكانوا يقفون من اصحاب المنازل التي تسوقهـــم الايام الى

العمل فيها موقف الحاشية المتملقة الخادعة من الامير او صاحب السلطان . وكانت مواقفهم هذه تذكرني كل يوم تقريباً بشخصية « بولونيوس » * في بعض روايات شكسبير .

ـ « يخيّل اليّ انها ستمطر ، » كذلك كان يقول الرجل الذي يدهن بيته ، رافعاً بصره الى السماء .

فيقرّه الدهانون على ذلك قائلين :

« اجل ، ليس من ريب في ذلك . »

ـ « ومع ذلك ، فلست أظن انها سحابة ماطرة . لعلها أن لا تمطر على الاطلاق . »

ـ « اجل ، إنها لن تمطر ، يا صاحب السعادة ! انا واثق من انها لن تمطر ! »

ولكن موقفهم من اصحاب البيوت في غيبتهم ، كان في العادة موقف تهكم وسخر . فأذا ما رأوا مثلاً واحداً من هؤلاء جالساً على الشرفة وفي يده صحيفة يطالعها ، قالوا :

« إنه يقرأ الجريدة ، ولكنّ في استطاعتي ان اقول أن ليس عنده ما يأكله . »

ولم اقصد يوماً الى بيتنا لزيارة اهلي . وكثيراً ما كنت اعود من عملي فأجد رسائل صغيرة تنتظرني ، رسائل موجزة متلهفة تحدثني فيها اختي عن والدي . فهي تقول حيناً إنه كان منشغل البال الى حدّ بعيد ، عند الغداء ، وأنه لم يَطعَم شيئاً . وتقول حيناً إنه اصيب بدوار فهو يتمايل ويترنح ، او إنه احتبس

* هو حاجب الملك ، في رواية هملت ، ووالد أوفيليا . [المعرب]

نفسه في غرفته ، ولم يغادرها إلا بعد برهة غير يسيرة . وكانت تلك الانباء وامثالها تقلقني . لم يكن في طاقتي ان انام ، وكثيراً ما كنت انطلق في الليل الى شارع دفورياتسكي الكبير فأذرعه جيئةً وذهوباً حائماً حول بيتنا ، متطلعاً الى النوافذ المظلمة ، ومحاولاً ان احزر ما إذا كان كل شيء يجري وفق المرام ، في البيت . وفي ايام الأحد ، كانت اختي تزورني ، ولكنْ خلسة ، وكأنها لم تفد لتراني انا ، بل المرأة التي حضنتنا في الصغر . حتى اذا اجتمعت بي رانَ الشحوب الشديد على وجهها ، واغرورقت عيناها بالدموع ، واخذت تعول في الحال .

وقالت لي ذات يوم :

« إن ابانا لن يقوى على الصمود والاحتمال بعد اليوم . ولو ان شيئاً حدث له — لا سمح الله — فليس من شك في ان ضميرك سوف يخزُكَ طوال حياتك . ذلك شيء فظيعٌ ، يا ميسيل . اتوسّل اليك إكراماً لامّنا ان تُصلح طريقتك في الحياة . »

فأجبتها :

« كيف استطيع ، ايتها الشقيقة ، الحبيبة ان أُصلح طريقتي اذا كنت مقتنعاً بأنني اعمل وفق ما يمليه عليّ ضميري ؟ افهمي ! »

— « انا ادري انك تعمل وفق ما يمليه عليك ضميرك ، ولكن لعلّ في ميسورك ان تعمل ذلك على نحوٍ مختلف ، بعض الشيء ، بحيث لا تجرح كرامة احد . »

وتنهدت المرأة العجوز من خلال الباب :

« آه ، ايها القديسون الاطهار ! لقد أُتلفتْ حياتك ! سوف

تقع متاعب ، ايها العزيزان ، سوف تقع متاعب ! »

٦

وذات احد ، جاءني الدكتور بلاغوفو على غير انتظار . كان يرتدي سترة عسكريةً فوق قميص حريري ، وحذاء عالي الساق ذا جلدٍ لماع .

واستهلّ حديثه وهو يصافحني في حرارة ، مثل تلميذ من التلاميذ :

« لقد جئتُ لاراك . انا اسمع عنك كل يوم تقريباً ، ولطالما خطر لي ان آتي واتحدث اليك من القلب الى القلب كما يقولون . إن الحياة في البلدة غدت مملّة الى حدّ مروّع ، فليس ثمة روح حية ، وليس ثمة امرؤ تستطيع ان تقول له كلمة . »

وصمت لحظةً خلع فيها سترته العسكرية وجلس بقميصه الحريري ، ثم استطرد قائلاً :

« الجوّ حار ، وحقّ العذراء . والآن ، يا صديقي العزيز ، دعني اتحدث اليك . »

وكنتُ انا ايضاً متبرماً ، وكنت اتوق منذ عهد طويل الى الاجتماع برجلٍ ليس بدهّان . ومن هنا استشعرت سروراً كبيراً عند رؤيته .

وقال وهو يقعد على سريري :

« سوف ابدأ بالقول إنني اشعر معك من صميم قلبي ، واحترم الحياة التي تحياها اعظم الاحترام . إنهم ههنا في البلدة لا يفهمونك .

والواقع انه ليس هناك من يفهم لانهم كلهم ، كما ترى ، باستثناء نفر قليل جداً ، خنازير حقيقيون ، ولكني عرفتك على حقيقتك يوم قمنا بنزهتنا الى المحطة . انت نفسٌ نبيلة ورجلٌ شريف سامي العقل ! انا احترمك وأعتدّ مصافحتك شرفاً عظيماً لي !»

قال ذلك في نبرة حماسية واردف :

« وليس من شك في انك لم توفق الى تغيير حياتك هذا التغيير الكامل العنيف إلا بعد ان اجتزت ازمة روحية معقدة . ومن الراهن ان استمرارك في انتهاج هذا السبيل الآن وسموّك بنفسك دائماً الى صعيد معتقداتك الرفيع خليقان بأن ينهكا عقلك وقلبك يوماً بعد يوم . والآن اخبرني ، استهلالاً للحديث ، ألست تعتبر انك لو انفقت قوة ارادتك ، وهذا النشاط المكدود وجميع طاقاتك هذه على شيء آخر - كأن تحاول مثلاً ان تصبح عالماً كبيراً او فناناً عظيماً — اذن لكانت حياتك ارحب واعمق ، واذن لكانت اكثر خصباً وإثماراً ؟ »

واخذنا باطراف الحديث . حتى اذا انتهينا الى العمل اليدوي عبرتُ عن هذه الفكرة : ان ما نحتاج اليه هو ان لا يستعبد القويُّ الضعيفَ ، وأن لا تكون الاقلية عالة على الاكثرية او غولاً يمتص دماءها ، يعني ان علينا جميعاً ، من غير ما استثناء ، سواء أكنا اقوياء او ضعفاء ، اغنياء او فقراء ، ان نشترك على قدم المساواة في النضال من اجل الحياة ، وان ينفق كلٌّ على نفسه بنفسه . وإنه ليس ثمة وسيلةٌ لاقامة المساواة بين الناس ، على هذا النحو ، خيرٌ من العمل اليدوي ، المُفْرَغ في

شكل خدمة شاملة يُلزم بها الجميع إلزاماً .

فسألني الطبيب :

« واذن اتعتقد بأنّ على كل امرىء ، من غير استثناء ، ان ينهض بعبء العمل اليدوي ؟ »

– « اجل . »

– « الا تظن انه لو اشترك كل امرىء – حتى الرجال الممتازون والمفكرون وكبار العلماء – في النضال من اجل الحياة ، واضاع وقته في تكسير الحجارة ودهن السطوح ، اذن لحـــاقَ بالتقدّم البشري أعظم الخطر ؟ »

فتساءلت :

« اي خطر هذا ؟ إن التقدم يكون في الحاجة الى الحب ، في انفاذ القانون الاخلاقي . واذا كنتَ لا تستعبد احداً ، ولا تظلم احداً ، فأي تقدم بعد هذا تريد ؟ »

وفجأة استبدّ الغضب ببلاغوفو ، فنهض على قدميه وقال :

« ولكن اعذرني ! ولكن اعذرني ! اذا ما انهمكتْ بزاقة في صدفتها بتطوير شخصيتها وتحقيق الكمال لهـا ، وانصرفت الى العبث بالقانون الاخلاقي ، فهل تسمّي هذا تقدماً ؟ »

فقلت وقد اخذني الحنق :

« العبث ؟ اذا لم تكره جارك على ان يُطعمك ويكسوك ، وعلى ان ينقلك من مكان الى مكان ، وعلى ان يحميك من اعدائك فليس من شك في ان هذا يشكّل تقدماً وسطَ حياة قائمة كلها على العبودية ، اليس كذلك ؟ بل إن ذلـك في نظري هو التقدم

الاعظم ، ولعله ان يكون وحده الممكن والضروري للانسان .»

— « إن حدود التقدم العالمي الشامل هي في اللانهاية . ومن هنا يبدو لي الكلام على التقدم « الممكن » المحدود بحاجاتنا ونظرياتنا المؤقتة — واعذرني اذا قلت ذلك — شيئاً عجيباً حقاً .»

فقلت :

« اذا كانت حدود التقدم هي في اللانهاية ، كما تقول ، فيلزم عن ذلك ان اهدافه غير واضحة . كأنك تطلب من المرء ان يعيش من غير ان يعرف على وجه الضبط ما الذي يعيش من اجله ! »

— « ليكن ذلك . ولكن « عدم المعرفة » ذاك ليس يدعو الى الملل والبرم بقدر ما تدعو اليها « المعرفة » التي تنادي بها . إني ارتقي سلّماً تسمّى التقدم ، او الحضارة ، او الثقافة . انا اصعّد فيها من غير ان ادري على وجه اليقين الى اين امضي . ولكن الحياة جديرة بأن تُعاش حقاً ، من اجل تلك السلّم البهيجة . على حين انك تدرك ما الذي تعيش من اجله ، وتحيا من اجل ان لا تستعبد جماعةٌ من الناس جماعةً من الناس ، ومن اجل ان يتناول الفنان والرجل الذي يسرق اصبغته وأدهنته طعام الغداء على قدم المساواة . ولكن فاتك ان ذلك هو الجانب الحقير ، البورجوازي ، المطبخيّ ، المظلم من الحياة . وإنه لما يبعث على الاشمئزاز ان يعيش الانسان من اجل ذلك ليس غير ! واذا كان بعض الحشرات يستعبد بعضها الآخر ، ويقضّ مضاجعه ، فدعها يلتهم بعضها بعضاً ! إننا في غير ما حاجة الى ان نفكر فيها . فأنت

تعرف انها سوف تموت وتفنى على اية حـال ، مهما استبسلتَ في استنقاذها من العبودية . ينبغي ان نفكر في ذلك العصر الالفي* الذي ينتظر الانسانية في المستقبل البعيد . »

وجادلني بلاغوفو في حرارة ، ولكنْ كان في ميسوري ان الاحظ ، في الوقت نفسه ، ان فكرةً مفارقةً ما ، كانت تشغل باله وتقلقه .

ثم انه قال وهو ينظر الى ساعته :

« احسبُ ان اختك لن تأتي ؟ كانت في بيتنا امس ، وقالت إنها ستفد لتراك اليوم . »

وصمت لحظة ثم اضاف :

« انت لا تفتأ تقول : العبودية ، العبودية . . . ولكنك تدري ان هذه مسألة خاصة ، وامثال هذه المسائل كلها تحلّها البشرية تدريجياً . »

وبدأنا نتحدث عن تحقيق الأهداف تدريجياً ، فقلت :

« ان مسألة العمل الصالح او العمل الطالح مسألة يقررها كل امرىء بنفسه من غير ان ينتظر حتى توفـق البشرية الى حلّها من طريق التطور التدريجي . وفوق ذلك ، فأن لهذه العملية التدرجية اكثر من مظهر واحد . فألى جانب تطـــور الفكرات البشرية تطوراً تدريجياً نشهد نمواً تدريجياً لفكرات من نوع آخر . لقـد قضي على الاسترقاق ، ولكن النظام الرأسمالي آخـذٌ في النمو .

---

* هو ، في النصرانية ، حقبة الالف عام التي سيملك فيها المسيح على الارض. [المعرب]

وفي عصر الفكرات المحرّرة نفسه، كما في ايام « باتي » تماماً، لا تزال الاكثرية تطعم الاقلية وتكسوها وتدافع عنها، على حين ظلت هي جائعة ممزقة الثياب لا حاميَ لها ولا نصير. ومثل هذا الوضع يمكن ان يُكيّف ليتسق مع ايٍّ من النزعات والتيارات الفكرية التي تشاء، لان فنّ الاستعباد يخضع هو ايضاً لعملية تهذيب تدريجية. فنحن ما عُدنا نجلد خدَمنا في الاسطبل، ولكننا نخلع على العبودية اشكالاً مهذبة، ونلتمس تبريراً لها في كل حال بعينها، على الاقل. إن الفكرات هي الفكرات عندنا؛ ولكن لو كان في ميسورنا الآن – في مُختتَم القرن التاسع عشر – ان نلقي عبء وظائفنا الفيزيولوجية البغيضة اكثر من غيرها الى نفوسنا على عاتق الطبقة العاملة لما أحجمنا عن ذلك من غير شك لنعمد من ثم الى تبرير صنيعنا بالقول: اذا اضاع الممتازون من الناس، المفكرون والعلماء الكبار، وقتهم في مثل هذه الاعمال فعندئذ يحيق بالتقدم خطرٌ عظيم. »

ولكنْ في تلك اللحظة وصلت اختي. ولم تكد ترى الى الطبيب حتى استولى عليها القلق والارتباك، وشرعت تقول – في الحال – ان الوقت قد أزف للعودة الى بيت ابي.

وفي حرارة صادقة قال بلاغوفو وهو يضغط بكلتا اليدين على فؤاده:

« كليوباترة الكسيفنا، ما الذى يحلّ بأبيك اذا قضيت نصف ساعة او نحوها مع أخيكِ ومعي؟ »

كان صريحاً يعرف كيف يُعدي الآخرين بحيويته. وبعد

لحظة من التفكير ، ضحكت اختي ، وفي الحال غمرتها موجة من المرح كتلك التي غمرتها يوم وفدت في نزهة الى المحطة . وانطلقنا الى الريف . واذ استلقينا على العشب ، واصلنا حديثنا الاول ، وتطلعنا الى البلدة حيث كانت جميع النوافذ المواجهة للغرب أشبه بالذهب المتوهج لان الشمس كانت تجنح الى الغروب .

وبعد ذلك صار بلاغوفو يفد عليّ كلما زارتني اختي ، وكان كلٌ منهما يحيي الآخر ، دائماً ، وكأن لقاءهما في غرفتي كان مصادفة . وكانت أختي تصغي حين اتجادل انا والطبيب . وفي مثل هذه الحال كانت تطفو على وجهها سيما من الحماسة المبتهجة كلها رقة وفضول ، فيبدو لي ان عالماً جديداً لم تحلم به من قبل قط ، عالماً تناضل الآن لاكتناهه وسبر غوره ، كان يتكشف لعينيها شيئاً بعد شيء . وكانت اذا ما تخلف الطبيب عن المجيء يرين على وجهها الهدوء والحزن . وكثيراً ما كانت تسفح العبرات ، فيما هي تجلس على سريري ، لاسباب لا تتحدث عنها البتة .

وفي شهر آب ، اصدر راديش امره الينا بأن نستعد للانتقال الى السكة الحديدية . وقبل يومين اثنين من « إبعادنا » عن البلدة زارني أبي ، وجلس جلسةً متمهلة . ومن غير ان ينظر الي ، مسح وجهه الاحمر ، ثم اخرج من جيبه صحيفة البلدة ، « الرسول » ، وانشأ يتلو في أناة وروية ، واضعاً التوكيد على كل كلمة ، نبأ يقول ان نجل مدير بنك الدولة الفرعي ، وهو شابٌ في مثل سني ، قد عين رئيساً لاحدى الدوائر في ديوان المالية .

ثم انه طوى صحيفته وقال :

« والآن أنظر الى نفسك : شحاذ ، في ثياب بالية ، لا تصلح لشيء ! حتى ابناء العمال والفلاحين يشقون انفسهم كي يصبحوا اناساً ، على حين تطمح انت — سليـــل اسرة بولوزنيف ذات المكانة والامتياز — الى معاشرة السّوقة وذوي الاصل الوضيع ! ولكني لم آتِ الى هنا للتحدث اليك ، لقد غسلتُ يديّ منكَ ... »

وهنا نهض واضاف في صوت مختنق :

« انما اقبلت لأبحث عن اختك ، ايها الولد الذي لا يساوي شيئاً . فقد غادرت المنزل بعد الغداء ، وها قد اشرفت الساعة على الثامنة ولمّا ترجعْ بعد . لقد اعتادت ، في المدة الاخيرة ، الاكثار من مغادرة المنزل ، من غير ان تُعلمني بذلك . ولقد غدت اقل احتراماً وخضوعاً من ذي قبل ، واني لالمس فيها أثر نفوذك الشرير المُذِل . اين هي ؟ »

وكانت في يده تلك المظلة التي عرفتُهـــا جيداً ، فغلب عليّ الارتباك ، وانكمشت مثل تلميذ صغير ، متوقعاً ان ينهال عليّ ضرباً بها ، ولكنه رأى ان عينيّ تقعان على المظلة ، فحمله ذلك ، في اغلب الظن ، على ان يضبط نفسه .

ثم قال :

« عِشْ كما يحلو لك . انا لن امنحك بركتي ! »

وغمغمت حاضنتي من وراء الباب :

« ايها القديسون الاطهار ! يا لك من ولد بائس سيء الحظ ! آه ، ان قلبي لينذرني بان شراً سوف يقع ! »

وعملتْ عـــلى الخط الحديدي . وهطلت الامطار من غير

انقطاع طوال شهر آب . وكان الجو رطباً بارداً . ولم يكن الفلاحون قد نقلوا الحنطة من الحقول . اما في المزارع الكبيرة حيث يجري الحصاد بالآلات فلم يكن القمح قد جُمع حزماً ولكن كُدس اكداساً . واذكر كيف ان تلك الاكداس النكدة الطالع انتهت الى ان تصبح اشد سواداً يوماً بعد يوم ، وقد نبت حبات القمح في سنابلها . وكان العمل شاقاً . فقد افسد المطر المنهمر كل ما جهدنا لتحقيقه من عمل . ولم يؤذن لنا بان نسكن او ننام في ابنية السكة الحديدية ، فكنا نفزع الى اكواخ الطين الرطبة القذرة التي عاش فيها عمال الخط الحديدي خلال الصيف ، وما كانت عيناي لتغتمضا ليلاً بسبب من البرد والقمل الزاحف على وجهي ويديّ . حتى اذا اشتغلنا قرب الجسور اقبل عمال السكة الحديدية في موهن من الليل ، عصبةً واحدة ، ابتغاء ضرب الدهانين ليس غير — فقد كان ذلك نوعاً من الرياضة بالنسبة اليهم . كانوا يضربوننا ، ويسرقون فراشينا . ولكي يثيرونا ويستفزونا للقتال كانوا يعمدون الى اتلاف ما نعمل ، كأنْ يلوّثوا صناديق الاشارة بالدهان الاخضر . وزاد الطين بلة ان راديش شرع يدفع الينا اجورنا على نحو غير نظاميّ . ونفصل ذلك ان اشغال الدهان كلها ، على الخط الحديدي ، لُزمت لاحد الملتزمين ، ثم عهد هذا الملتزم فيها الى رجل آخر ، لزّمها هو بدوره لراديش بعد ان اقتطع عشرين بالمئة لنفسه . ولم يكن ذلك العمل رابحاً ، في ذات نفسه . ولقد زاد المطر الوضع سوءاً . فقد أضيع الوقت ؛ ولم يكن في ميسورنا ان نعمل ، على حين

كان راديش مكرهاً على ان يدفع الى الرجال أجورهم آخر النهار. وعضّ الجوع الدهانين فضربوا راديش ، وسموه المخادع ، ومصّاص الدماء ، ويهوذا ، بينما كان هو المسكين يتنهد ، ويرفع يده في يأس الى السماء ، ويختلف الى منزل السيدة تشيبراكوف التماساً للمال .

٧

واقبل الخريف ممطراً ، مظلماً ، موحلاً . وبدأ موسم البطالة ، فكنتُ اجلس في البيت عاطلاً عن العمل ثلاثة ايام بطولها ، او اشتغل اشغالاً صغيرة مختلفة لا تمتّ الى مهنة الدهان بصلة . لقد حدلت الارض مثلاً ، كاسباً بذلك نحواً من اربعة بنسات يومياً . وكان الدكتور بلاغوفو قد رحل الى بطرسبرج . وكانت اختي قد انقطعت عن زيارتي . ولازَم راديش فراش المرض متوقعاً الموت بين يوم ويوم .

وكان مزاجي النفسي خريفياً ايضاً . فقد قدّر لي — ولعل مرد هذا الى انني صرتُ لا انظر الى حياة بلدتنا ، بعد ان غدوتُ عاملاً ، الا من الجانب السيء — ان اكتشف كل يوم تقريباً شيئاً جديداً يكاد يلقي بي في مهاوي اليأس . ومن هنا تكشّفت تلك الجماعة من مواطني — التي لم يكن لي راي فيها من قبل ، والتي بدت من الوجهة الخارجية على غاية من الدماثة والتهذيب — عن اناس وضيعين ، وحشيين ، لا يتورعون عن القيام بأي عمل قذر فقد خُدعنا ، نحن معشر العامة ، وغُشِشنا ، وأبقينا ننتظر ساعات

وساعات في المدخل البارد او في المطبخ . لقد أهنا وعوملنا باقسى القسوة. وفي الخريف الصقت ورق الزينة على جدران غرفتين من غرف المطالعة وغرفتين اخريين في النادي . ولقد دفعوا الي بنساً وثلاثة ارباع البنس لكل قطعة ، ولكنهم كلفوني ان اوقع على نص يقول انني قبضتُ بنسين ونصف بنس لكل قطعة . حتى اذا رفضتُ ذلك قال لي رجل ذو مظهر خيّر ، ونظارتين مذهبتي الحواشي ، هو من غير ريب عضو في لجنة النادي :

« اذا قلتَ كلمة واحدة بعد ، ايها السافل الوغد ، سحقتُ وجهك وصيّرته كالهلام ! »

وحين همس الخادم في اذنـــه انني ابن بولوزنيف المهندس المعماري عراه الارتباك ، وشاع الدم في وجهه فهو قرمزي اللون ، ولكنه ما لبث ان ملك زمام نفسه وصاح :

« فليأخذه الشيطان ! »

وفي الدكاكين كانوا يخدعوننا نحن العمال ، فيقدمون الينا لحماً نتناً ، وطحيناً عفناً ، وشايا استُعمل ثم جفّف من جديد . كان البوليس يدفعنا في الكنيسة ، وكان المعـــاونون والممرضات ينهبوننا في المستشفى ، واذا ما كنا افقـــر من ان نقدر على رشوتهم انتقموا لانفسهم بأن يحملوا الطعام الينا في اطباق قذرة . وفي دار البريد كان اصغر الموظفين يعتبر ان من حقه ان يعاملنا كالحيوانات ، وان يصيح بنا في سلاطة خشنة : « إنتظر انت ! » و « الى اين تشق طريقك مزاحماً على هذا الشكل ؟ » حتى كلاب المنازل لم تقف منا موقفاً ودياً فهي تنقضّ علينا في شراسة عجيبة .

ولكنّ الشيء الذي شدهني اكثر من اي شيء آخر في حياتي الجديدة هو فقدان العدل فقداناً كاملاً كان الفلاحون يعبرون عنه بقولهم : « لقد نسوا الله . » ونادراً ما كان ينقضي نهار واحد من غير غشٍّ او اختلاس . فالتجار الذين نشتري منهم الزيت كانوا يسلبوننا ، وكذلك كان يفعل الملتزمون والعمال وكلّ من يعهد الينا في عمل . ولست في حاجة الى النصّ على ان المسألة لم تكن في يوم من الايام مسألة حقوقنا السليبة ، وأننا كنا نلتمس المال الذي نكسبه بعرق جبيننا وكأنه صدقة او إحسان ، ونقف في انتظار الحصول عليه عند الباب الخلفيّ وقبعاتنا في ايدينا .

كنتُ أورّق غرفة من غرف النادي محاذيةً لقاعة المطالعة . وعند المساء ، فيما كنت استعدّ للانصراف ، دخلت الغرفةَ ابنة دولزيكوف ، المهندس ، وقد تأبطتْ رزمةً من الكتب .

وانحنيت لها . فقالت ، وقد عرفتني في الحال ، وبسطت يدها لمصافحتي :

« أوه ، كيف حالك ! أنا سعيدة جداً بأن أراك . »

وابتسمتْ ، وتطلعتْ في فضول ودهش الى مئزر العمل الذي ألبسه ، والى الدلو المحتوي على معجون الالصاق ، والورق المنشور على الارض . واضطربتْ ، وأصابها الارتباك هي ايضاً . وقالت :

« ينبغي أن تعذرني اذا ما نظرت اليك هكذا . لقد حُدّثت كثيراً عنك ، وبخاصة من قِبل الدكتور بلاغوفو ، الذي يحبك حقاً . ولقد تعرفتُ الى شقيقتك أيضاً . إنها فتاة عذبة قريبة الى

الفؤاد ولكني لم أوفق يوماً الى إقناعها بأنه ليس في نهج الحياة البسيطة الذي تسلكه ما يروّع . على العكس ، لقد أصبحتَ أمتع رجل في البلدة . »

وتطلّعتْ من جديد الى الدلو والى ورق الجدران ، ثم استطردت :

« لقد سألتُ الدكتور بلاغوفو أن يعرفني بك ، ولكنه نسي في ما يبدو ، او لعله لم يجد متسعاً من الوقت . وعلى أية حال ، فقد تعارفنا برغم ذلك . واذا ما استطعت ان تفد لزيارتي كنتُ مدينة لك الى حدّ بعيد . فأنا شديدة التوق الى التحدث اليك . انا واحدة من بسطاء الناس . »

وهنا مدّت يدها إليّ واضافت :

« وأرجو ان لا تشعر امامي بشيء من الحرج . ان والدي ليس هنا . انه في بطرسبرج . »

ومضت الى قاعة المطالعة ، وقد سُمِع لتنورتها حفيفٌ ، على حين مضيتُ انا الى البيت ، فلم تغتمض عيناي الا بعد جهد كبير .

وفي ذلك الخريف الكئيب ، كانت نفسٌ كريمةٌ ما ، تبعث اليّ بين الفينة والفينة بشيء من الشاي والليمون الحامض او البسكويت او الطيور المَصيدة المحمّرة ، لكي ترفع مستوى حياتي من غير ريب . ولقد اخبرتني كاربوفنا ان جندياً ما ، كان يحملها اليّ دائماً ، ولكنها لا تدري من هو مرسلها . وكان الجندي يسأل عن صحتي واحوالي ، وما اذا كنت اتناول طعام

الغداء كل يوم ، وما اذا كان عنـــدي ملابس تبعث الدفء في الجسم . حتى اذا دخلت ايام الصقيع أُهديتُ بالطريقة نفسها وفي خلال غيبتي عن البيت ، وشاحاً رقيقاً محبوكاً حبكاً ، حمـــله الجندي اليّ . وكانت تنبعث منه ربا عطر واهنة مراوغـــة ، وعندئذ ادركتُ من هي جنيتي الطيبة . فقد كان العبير الفائح من الوشاح هو عبير زنابق الوادي ، العطر المفضل عند آنيوتا بلاغوفو .

ولم يكد فصل الشتاء يحلّ حتى توفر العمل ، وغدت الحيـاة اكثر بهجةً . وأبلّ راديش من مرضه ، وعملنـا معاً في كنيسة المقبرة ، حيث كنا نضع الاساس لقواعد الايقونات قبل ان نموهها بالذهب . وكانت مهمة نظيفة هادئة ، وكما كان رفاقنـــا يقولون ، رابحة ايضاً . وكان في ميسور المرء ان يُنجز قـدراً صالحاً من العمل في يوم ، وكان الوقت ينقضي في سرعـة ، ومن غير ان يُشعر به . ولم يكن ثمة شتيمة ، او ضحك ، او حديث بصوت عال . فقد كان المكان نفسه يفرض على المـرء السكينة والمسلك اللائق ، ويغريه بالهدوء والافكار الرصينة . وكنا اذا ما استغرقنا في عملنا نقف او نقعد في غير حراك وكأننا التماثيل . كان يرين على الجو صمت كالموت يتفق وروح المقبرة بحيث ما تكاد أداة تسقط ، او شعلة تغمغمُ في المصباح حتى يضج صداها فظاً مرناناً يحملنا على التلفتّ حولنا . وبعد صمت طويل كنا نسمع دندنة مثل ازيز النحل . ولم تكن هـذه غير لحن رثائي يُنشد في أصوات مكظومة لدى الباب عن نفس طفل صغير . وقد يكون احد الفنانين منصرفاً الى رسم حمامة مطوّقة بالنجوم على احـدى

القباب فيشرع يصفر صفيراً رقيقاً ثم يذكر المقام الذي هو فيه ، فيُجفل ويغرق فجأة في صمت عميق . وكثيراً ما كان راديش هو الذي يقطع حبل الصمت إذ يستجيب لأفكاره فيقول متنهداً : « كل شيء ممكن ! كل شيء ممكن ! » وقد يأخذ جرَسٌ بطيء قانطٌ يقرع فوق رؤوسنا ، وعندئذ يلاحظ الدهانون أن ثمة ، من غير شك ، جنازة لرجل ثريّ ما . . .

وهكذا قضيت ساعات النهار في غمرة من هذا السكون في غَسَق الكنيسة ، على حين قضيتُ الليالي الطوال ألعب البلياردو أو اقصد الى المسرح مرتدياً بنطلوني الجديد الذي اشتريته مما كسبته بعرق جبيني . وكانت الحفلات الموسيقية والتمثيلية قد استُهلت في منزل آل آزوغين . وكان راديش يدهن وحده جدران المسرح الآن . وكان من دأبه ان يحدثني عن عقدة الرواية ويصف لي « اللوحات الحية » التي شهدها . وكنت أسمع اليه في حسد . فقد أخذني الشوق الشديد الى الاعادات التمثيلية ، ولكني لم أوفق الى إقناع نفسي بالذهاب الى بيت آزوغين .

وقبل عيد الميلاد بأسبوع رجع الدكتور بلاغوفو . وهكذا استأنفنا مناقشاتنا ، ولعبنا البلياردو في الأمسيات . وكان من عادته اذا ما لعب أن ينزع سترته ، ويفك أزرار قميصه ، كاشفاً عن صدره ، ويحاول ان يصطنع على الجملة سيما فاسقٍ ليس يُرجى إصلاحه . إنه ما كان يُسرف في الشراب ، ومع ذلك فهو يضجّ ويصخب الى حد متطرف ، وهو يمتاز بقدرة خاصة على أن يُجهز على عشرين روبلاً في الليلة الواحدة في حانة فقيرة رخيصة كحانة

« الفولغا » .

واستأنفت أختي زياراتها لي . وكان كل منهما يعبّر كلّ مرة ، عن دهشه لرؤية الآخر ،ولكن وجهها المبتهج المذنب كان يُفصح بأن تلك الاجتماعات ليست بنت المصادفة . وذات مساء ، فيما كنا نلعب البليارد ، قال لي الدكتور :

« أقول ، لماذا لا تذهب وترى الآنسة دولزيكوف ؟ أنت لا تعرف ماريا فيكتوروفنا . إنها مخلوقة بارعة ، فاتنة ، ونفسٌ بسيطة دمثة الخلق . »

ووصفتُ له كيف استقبلني أبوها في الربيع .

فضحك الدكتور وقال :

« هراء ! المهندس شيء ، وهي شيء آخر . حقاً ، يا صديقي العزيز، ينبغي ان لاتكون جافاً معها. إذهب وزُرْها في وقت ما. وعلى اية حال ، فما قولك في أن نزورها مساء الغد ؟ »

وأقنعني . وفي المساء التالي لبست بنطلوني الجديد ، المنسوج من صوف غليظ. وفي شيء من الاهتياج، مضيت لزيارة الآنسة دولزيكوف . ولم يبدُ الخادم متباهياً أو فظيعاً الى حدٍ بعيد ، ولم يبدُ الأثاث زاهياً جداً كما قد بدا في ذلك الصباح الذي وفدتُ فيه على المهندس التماساً لعمل . وكانت ماريا فيكتوروفنا تتوقع مجيئي ،فاستقبلتني استقبال رجلٍ تعرفه منذ عهد بعيد ،وصافحتني مصافحةً ودية . كانت ترتدي ثوباً رمادياً من الجوخ ذا أردان كاملة ، وقد سوّت شعرها على الطريقة التي اعتـــدنا أن نسميها « آذان الكلاب » عندما شاعت في بلدتنا منذ عام واحـد . لقد

رُجّل الشعر وأسدل فوق الاذنين ، وهـذا ما جعل وجه ماريا فيكتوروفنا يبدو أعرض ، فتراءت لي هذه المرة أشبه ما تكون بأبيها ، ذي الوجه العريض الأحمر ، الذي تنطوي سيماه على شيء يذكّر المرء بسائق عربة من عربات التزلج على الثلج . كانت مليحةً انيقة ، ولكنها لا تبدو غضةً طرية العود . لقد بدت في الثلاثين من العمر ، على الرغم من أنها لم تكن تتجاوز ، في الواقع ، الخامسة والعشرين .

وقالت وهي تدعوني الى الجلوس :

« شدّ ما أنا شاكرة للدكتور العزيز فضله . إذ لولاه لما أقبلت لتراني . إني سئمة حتى الموت ! لقد سافر أبي وخلّفني وحدي ، ولستُ ادري ما الذي أعمله بنفسي في هذه البلدة . »

ثم شرعت تسألني أين اعمل الآن ، وكم اكسب ، واين أعيش .

وأخيراً تساءلت :

« هل تنفق على نفسك شيئاً غير الذي تكسبه ؟ »

— « لا . »

فتنهدت وقالت :

« يا لك من رجل سعيد ! ان شرور الحياة جميعاً ، في ما يُخيل اليّ ، انما تنشأ من البطالة والضجر ، والفراغ الروحي ، وهي كلها أشياء لا مفر منها حين يتعود المرء ان يعيش على حساب الآخرين . حذار ان تظنّ انني أداجي . إني اقول لك في صدق واخلاص : ليس من الممتع أو المبهج أن يكون المرء غنياً . ولقـــد قيل : « اجعلوا لكم أصدقاء بمال الظلم » لانه ليس ثمة ولا يمكن ان يكون

ثمة مالٌ عادلٌ .

وألقت نظرةً على الاثاث وقد رانت على وجهها انطباعة كئيبة باردة ، وكأنما تريد ان تحصي عدد القطع التي يتألف منها ، ثم أردفت :

« ان للرفه والترف قوةً سحرية. انها يستدرجان، حتى ارباب الارادة الحديدية ، الى براثنها شيئاً بعد شيء . لقد انقضى زمان عشتُ فيه أنا وأبي عيشةً بسيطة هي ابعد ما تكون عن الاسلوب المترف . اما الآن ، فها انت ذا ترى كيف نعيش ؟ »

وصمتت لحظةً ثم قالت وهي تهز كتفيها :

« انه شيء فظيع . نحن ننفق نحواً من عشرين الف روبل في العام ! وهنا في الريف ! »

فقلت :

« ان المرء لينزع الى ان ينظر الى الرفه والترف بوصفهما الامتياز السرمديّ لرأس المال والدراسة النظامية . والذي أعتقده أن منادم الحياة يمكن ان تلتئم مع انواع العمل كافة ، حتى أشقّها واقذرها. إن أباكِ غنيّ ، ومع ذلك فهو نفسُه يقول إنه كان من نصيبه أن يعمل ميكانيكياً ومزيّناً . »

فابتسمت وهزت رأسها في ارتياب :

« إن أبي يأكل الخبز في بعض الاحيان مغموساً في الكفاس*. تلك غيّة ، او ذوق خاص ! »

---

* جعة روسية تصنع من القطاني او الجاودار وهو ضرب من الحبوب . [المعرب]

وفي تلك اللحظة قُرع الجرس ، فنهضت من مكانها .

ثم انها قالت :

« يتعيّن على الاغنياء والمثقفين ثقافةً حسنة ان يشتغلوا كما يشتغل غيرهم من الناس . وإذا كان ثمة رِفهٌ فينبغي ان ينعم به الجميع بالتساوي . يجب أن لا يكون هناك امتيازات البتة ، ولكن كفانا تفلسفاً . حدثني حديثاً فيه طرافـــة . حدثني عن الدهانين ايّ شيء يشبهون ؟ وهل هم ظرفاء مضحكون ؟ »

ودخل الطبيب الغرفة . واخذت احدثها عن الدهانين . وإذ لم تكن لي سابقةٌ في التحديث ، فقد غلبَ عليّ التكلف ، فصورت الجماعة كما يفعلُ علماء السلالات البشرية (الاثنولوجيون) ، في ترصنٍ وإملال . وروى لنا الطبيب بعض الحكايات عن العمال : لقد ترنّح ، وسفح العبرات ، وركع على ركبتيه ، بل لقد ذهب الى ابعد من ذلك ، في تقليده احـــد السكارى ، فانطرح على الارض . وكان تمثيله ناجحاً ، فأغربت ماريا فيكتوروفنا في الضحك وهي تحدّق اليه . ثم انه عزف على البيان ، وتغنى بصوته المرتفع العذب النحيل ، فيما وقفت ماريا فيكتوروفنا جانباً ، وراحت تملي عليه مـــا ينبغي ان يغنيه ، وتصححه حين يرتكب خطأ ما .

وتساءلتُ :

« لقد سمعتُ انكِ تغنين ، ايضاً ؟ »

فصاح الدكتور في ذعر :

« تغني ، ايضاً ! إنها تغني على نحوٍ بارع ، مثل فنانة بلغت

غاية الكمال ، ثم نقول عنهـــا انها « تغنّي ايضاً » ! يا لها من فكرة ! »

وقالت جواباً عن سؤالي :

« لقد درستُ جدياً في وقتٍ مـــا ، ولكني اطّرحتُ ذلك الآن . »

ومن على كرسيّ لا ظهر له أنشأتْ تحدثنا عن حياتهـــا في بطرسبرج ، وتحاكي بعض المغنين المشهورين ، مقـــلدة اصواتهم وطرائقهم في الاداء. ورسمتْ مسوّدةَ صورة للطبيب في ألبومها، ثم مسوّدَةَ صورة لي . والحق انها لم تكن ترسم جيداً ، ولكن كلا الرسمين كان يُشبه صاحبه . لقـد ضحكتْ ، وكانت تمور بالرغبة في الاساءة ،وتصعّر خدها تصعيراً فاتناً ، وقد لاءمها ذلك اكثر من الحديث عن « مال الظلم » ، وبدا لي ان كلامها السابق على الثروة والترف لم يكن جدياً ، ولكنْ تقليداً لبعض الناس. كانت ممثلة هزلية من الطراز الاول . ولقد قارنتها ، من الناحية العقلية ، بالشابات من سيداتنا ، فاذا بآنيوتا بلاغوفو ، المليحـــة الرفيعة القدر ، تنهزم هي نفسها في تلك المقارنة . كان الفارق هائلاً كذلك الذي يقوم بين وردة جميلة تُعهّدت بأحسن الرعاية ،وبين علّيقة برية .

وتناولنا ثلاثتنا طعام العشاء معاً . وشرب الدكتور وماريا فيكتوروفنا خمراً حمراء ، وشامبانيا ، وقهوة مزجت بالبراندي. وتبادلا قرع الكؤوس ، وشربا نخب الصداقة ، ونخب التنوّر ، ونخب التقدم ، ونخب الحرية . ولم يغلب عليهما السكر ، ولكنّ

وجناتها احمرّت ليس غير ، واخذا يضحكان ، على نحو موصول ولغير ما سبب ، ضحكاً انتهى بهما الى البكاء والاعوال . ولكي لا اكون مصدر إزعاجهما احتسيت شيئاً من خمر كلاريت ايضاً .

وقالت الآنسة دولزيكوف :

« إن اصحاب الطبائع الموهوبة ، في سخاء ، يعرفون كيف يعيشون ويسلكون سبيلهم الخاصـــة . اما العاديون من الناس ، مثلي انا ، فلا يعرفون ، وهم يعجزون عن ان يعملوا شيئاً ينطوي على مبادرة واستقلال . ومن هنا لم يبقَ لهم إلا ان يميزوا حركة اجتماعية عميقة ما ، ويندفعوا معها الى حيث تسوقهم . »

فتساءل الدكتور :

« كيف يستطيع المرء ان يميز شيئاً غير موجود ؟ »

— « نحن نظنّ ذلك لاننا لا نراه . »

— « صحيح ؟ إن الحركات الاجتماعية من اختـــراع الادب الجديد . وليس عندنا اي منها . »

وبدأ النقاش .

واعلن الطبيب في صوت عالٍ :

« ليس عندنا حركات اجتماعية عميقة ، ولم يكن عندنا شيء من ذلك في ايما وقتٍ مضى . وليس ثمة نهاية لما خلقه الادب الجديد ! لقد خلق عمالاً مثقفين في الريف ، وقد تبحث في قرانا كلها فتجد على الاكثر رجلاً اخرق ابله يرتدي سترة قصيرة من قماش غليظ ، او ثوباً رسمياً اسود ، ويرتكب اربعة اخطاء في تهجئة كلمة مؤلفة من ثلاثة حروف ! إن الحياة المثقفة لمّا تبدأ في ديارنا بعد . فلا

نزال نقع على الوحشية نفسها، والفظاظة الموحّدة نفسها ، والتفاهة نفسها التي طغت على البلاد منذ خمسمئة عام . لقـــد عرفنا بعض الحركات والتيارات، ولكنها كانت كلها حقيرة، دنيئة ،تستهدف مصالح انانية مبتذلة — فليس في ميسور المرء ان يجد فيهـا شيئاً ذا خطر . وإذا كنتِ تعتقدين انكِ ميزتِ حركة اجتماعيـة عميقة ، وانكِ من طريق الانضواء تحت لوائهـــا تجندين نفسك لمهـــامّ ذات نَفَس عصريّ ، من مثل تحـــرير الحشرات من العبودية ، او الصيام عن فطائر لحم البقر ، فأني أهنئك ياسيدتي . ينبغي أن ندرس ، وندرس ، وندرس . وينبغي أن نتمهل قليلاً في حركاتنا الاجتماعية العميقة . فنحنُ لمّا ننضجُ النضـــج الكافي الذي يؤهلنا لها . واذا اردتِ كلمة الحق قلتُ لكِ إننا لانعرف شيئاً عنها . »

فقالت ماريا فيكتوروفنا :

« أنت لا تعرف شيئـــاً عنها ، أما أنا فأعرف . يا إلـهي ، شدّ ما انت مزعج اليوم ! »

— « إن واجبنا هو أن ندرس وندرس ، وان نحـاول جمع اكبر قدر ممكن من المعرفة ، لأن الحركات الاجتماعية الأصيلة تنشأ حيث تكون المعرفة . وسعـادة الجنس البشري في المستقبل رهنٌ بالمعرفة وحدها . اني أشرب نخب العلم ! »

فقالت ماريا فيكتوروفنا بعد لحظة من الصمت والتفكير :

« ليس من شك في شيء واحد : يتعين على المرء ان ينظّم حياته على نحوٍ مختلف بعض الشيء . فالحياة ، كما قد كانت حتى

الآن ، ليست جديرةً بأن تعاش . كفانا كلاماً في هذا الموضوع . »

ودقت ساعة الكاتدرائية ، حين غادرنا منزلها ، الثانية بعد نصف الليل .

وفي عيد الميلاد تناولنا طعام الغداء مع ماريا فيكتوروفنا . وطوال فترة الأعياد قصدنا لزيارتها كل يوم تقريباً ، ولم يكن ثمة احدٌ سوانا على الاطلاق ، ولقد كانت على صواب حين قالت انه لا اصدقاء لها في البلدة غير الطبيب وغيري . وكنا ننفق معظم الوقت في الحديث ، وبين الفينة والفينة كان الدكتور يأتي بكتاب او صحيفة ويتلو علينا بعض ما فيهما . والحقّ أنه كان أول رجل حسن الثقافة التقيتهُ في حياتي : لستُ استطيع ان أحكم ما اذا كان يعرف كثيراً ام لا ، ولكنه كان يعوض معرفته دائماً وكأنما يريد ان يشركه الآخرون بها . وكان اذا ما تكلم عن ايّ شيء ذي صلة بالطب لم يُشبه اياً من الاطباء العاملين في البلدة ، فهو يترك انطباعةً خاصةً حيّة في ذات نفسي ، مما حملني على الظنّ بأنه كان خليقاً بان يكون عالماً حقيقياً ، لو اراد . وكان هو الشخص الاوحد ذا السلطان الحقيقيّ على نفسي ، آنذاك . ذلك بأني بدأت ، بعد اتصالي به وقراءة الكتب التي قدمها اليّ ، أستشعر شيئاً فشيئاً ظمأً الى المعرفة قميناً بأن يخلع على عملي المكتئب قيمةً ومغزى . لقد بدا غريباً في نظري ، مثلاً ، ان اكون قد جهلتُ حتى ذلك الحين ان العالم كله مؤلف من ستين عنصراً ، وأن لا أعرف ما هو الزيت ، وما هي الأصبغة ، وأنه كان من الجائز ان أواصل العيش من غير ان أدرك هذه الاشياء .

ليس هذا فحسب ، بل ان اتصالي بالطبيب سما بي من الناحيـــة المناقبية أيضاً . فقد كنت لا افتأ اناقشه واجادله . وعـلى الرغم من أني لم اتزحزح عادةً عن آرائي الخاصة إلا انني بدأت ارى ، بفضله هو ، ان كل شيء لم يكن واضحاً عندي . ومن هنـــا حاولت ان اصوغ جهد الطاقة معتقدات محدّدة في ذات نفسي ، بحيث تكون امالي الوعي واضحة المعالم ، وبحيث لا يبقى شيء غامضاً في ذهني . ومع ذلك ، فقد كان برغم كونه افضل اهل البلدة واحسنهم ثقافة ، بعيداً جداً عن غاية الكمال . ففي خصاله العامة ، وفي دأبه على تحويل كل حديث إلى مناقشة ، وفي صوته المرتفع العذب ، وحتى في نزعته الودية كان ثمة شيء خشن ، مثل طالب اللاهوت . وحين كان يخلع سترته ويقعد بقميصه الحريري ، او حين يلقي ببخشيش ما الى نادلٍ في المطعم كنت أقول في ذات نفسي دائماً ان الثقافة قد تكون خيراً كلها ، ولكن الروح التتاري لايزال يختمر في نفسه .

وفي عيد الغطاس رجع الى بطرسبرج . لقد مضى عند الصباح ، وبعد الغداء وفدت شقيقتي عليّ . ومن غير ان تنزع قبعتهـــا وسترتها ذات الفراء ، جلست في صمت ، شديدةَ شحوب الوجه ، وسمّرت عينيها على نقطة معينة . لقد اوقـــع الصقيع رعدةً في جسمها ، وكان في ميسور المرء ان يرى انها تعاني من اذاه شيئاً كثيراً .

وقلت :

« يبدو انك مصابة ببرد . »

واغرورقت عيناها بالدمع . ثم نهضت وقصدت الى كاربوفنا من غير ان توجه اليّ كلمة واحدة ، وكأنما جرحتُ مشاعرها . وبعد فترة قصيرة سمعتها تقول في جَرْس من التوبيخ المرير :

« ايتها الحاضنة ، لأيّ غرضٍ عشتُ حتى اليـــوم ؟ لأيّ غرض ؟ قولي لي ، ألم أُضيّع شبابي سدىً ؟ ألم انفـــق اطيب سنوات العمر من غير ان اعـرف شيئاً سوى ضبط الحسابات ، وصبّ الشاي ، وعدّ انصاف البنسات ، وإكـــرام الضيف ، متوهمةً أن ليس ثمة ما هو افضل في العالم كله ! ايتها الحاضنة ، إفهمي . إن نفسي لتضجّ بأشواق الكائن البشريّ ومطالبه . انا أريد ان اعيش ، ولقد أحالوني الى شبه مدبرة منزل . انه شيء فظيـع ، فظيـع ! »

وألقت بمفاتيحها نحو الباب ، فوقعت في غرفتي مُرنّة مقعقعة . كانت مفاتيح خزانة أدوات المائدة ، وخزانة المطبخ ، والقبو ، وعلبة الشاي ـ المفاتيح نفسها التي كانت أمي تحملها .

وصاحت المرأة العجوز في ذعر :

« أوه ، ايتها السموات الرحيمة ! ايها القديسون المقيمون في الأعالي ! »

وقبل ان تنقلب اختي الى البيت ، دخلت غرفتي لتأخـــذ المفاتيح وقالت :

« يجب ان تغفر لي ان شيئاً عجيباً قد وقع لي في الفـــترة الأخيرة . »

٨

حين رجعت الى البيت من سهرة قضيتها حتى ساعة متأخرة من الليل عند ماريا فيكتوروفنا، وجدت مفتشاً شاباً من مفتشي الشرطة مرتدياً ثوباً عسكرياً جديداً، ينتظرني في غرفتي. كان جالساً الى طاولتي، يقلّب كتبي وينقّب فيها.

وقال لي وهو ينهض من مجلسه ويتمطى:

« تلك هي المرة الثالثة التي أجيء فيها الى هنا. ان الحاكم يأمرك بأن تمثل بين يديه في الساعة التاسعة صباحاً. حذار ان تتخلّف. »

وطلب اليّ ان اوقّع على نصّ يؤذن بأني سوف أمتثل أمر الحاكم، ثم انصرف. وكان لزيارة مفتش الشرطة هذه في تلك الساعة المتأخرة من الليل، ولدعوة الحاكم غير المرتقبة، وقع ثقيل، الى حدّ غامر، على نفسي فمنذ صباي الاول كنت أستشعر الرعب المُرْعِد في حضرة رجال الدرك، ورجال الشرطة، وموظفي دوائر العدل. وها انا ذا الآن يعصف بي القلق، ولكني مرتكب ذنباً ما، حقاً. ولم استطع ان انام. وكذلك اضطربت حاضنتي وبروكوفي، ولم يغتمض لهما جفن. وكانت حاضنتي تشكو الماً في اذنها ايضاً، فهي تئنّ، وهي تصرخ في بعض الاحيان من شدة الألم. وإذ ادرك بروكوفي انني لا ازال مستيقظاً فقد اقبلَ على غرفتي، وفي يده مصباح، وجلس الى المائدة.

وبعد لحظة من التفكير قال:

« ينبغي ان تأخذ جرعة من منعش البهار. لانه إذا ما أخذ

المرء قليلاً من الشراب في وادي الدموع هذا لم يُصِبْه ذلك بأي اذىً . ولو انّ ماما صبّت قليلاً من منعش البهار في اذنها ، اذن لعاد عليها هذا العمل بأعظم النفع . »

وبين الساعة الثانية والثالثة استعدّ بروكوفي للذهاب الى مسلخ البلدة التماساً للحتم . وإذ كنت اعلم انه ليس ينبغي لي ان انام ، حتى الصبح ، بعد الآن ، ورغبةً مني في إضاعة الوقت حتى الساعة التاسعة ، فقد مضيت معه . ومشينا على ضوء فانوس ، فيما كان غلامه نيقولكا – البالغ من العمر الثالثة عشرة ، الحافلة وجنتاه بالبقع الزرقاء من لسع الصقيع ، البادية عليه سيما قطاع الطرق العاديين – يشقّ طريقه خلفنا على عربة تزلج ، حاثّاً الفرس على الاسراع ، في صوت مبحوح .

وفي بعض الطريق قال لي بروكوفي :

« احسب انهم سوف يعاقبونك في مقرّ الحاكم . هناك قواعد للصناعة خاصة بالحكام ، وقواعد خاصة بالكبار من رجال الدين ، وقواعد للموظفين ، وقواعد للاطباء . ولكل طبقة قواعدها . ولكنك لم تلتزم قواعدك ، وليس يمكن ان يجاز لك ذلك . »

وكان المسلخ قائماً خلف المقبرة ، ولم أكن قد رأيته ، حتى ذلك الحين ، إلا من بعيد . كان يتألف من ثلاثة عنابر قاتمة ، يحيط بها سياج رماديّ ، فما تكاد الريح تهبّ من تلك الناحية ، في ايام الصيف القائظة ، حتى تنطلق منها رائحة نتنة خانقة . وإذ دخلت الفناء ، الآن ، وسط الظلام ، فلم أر العنابر . لقد مررت بمجموعة متطاولة من الخيل والمزالج ، وبعضها فارغ وبعضها مُثقَلٌ باللحم .

وكان الناس يطوّفون هناك ، وفي ايديهم الفوانيس ، شاتمين مجدّفين على نحوٍ يثير الاشمئزاز في النفس . وجدّف بروكوفي وغلامه نيقولكا في اقذاع متكافيء . وكان الجوّ يضجّ ضجيجاً موصولاً بالتجديف والسعال وصهيل الخيل .

حتى اذا رُكم اللحم على المزالج انطلقنا الى دكان بروكوفي في السوق . وكان الصبح قد أخذ يتنفس . وخرج الطهاة بسلالهم والنسوة العجائز بمعاطفهنّ واحداً إثر واحد . وأطلق بروكوفي — وقد ارتدى مئزراً أبيض ملطخاً بالدم وحمل بيده ساطوراً — شتائم مخيفة ، ورسم اشارة الصليب عند الكنيسة ، وصاح بأعلى صوته ليسمعه السوق كله قائلاً إنه سيبيع اللحم بسعر الكلفة ، بل وبخسارة أيضاً . وكان يطفّف الوزن ولا يعيد ما يبقى للمشتري في ذمته كاملاً . وكان الطهاة يرون ذلك ، ولكنهم وقد أصمّتهم صيحاته لم يحتجوا ، مجتزئين بتسميته جلاّداً . وكان يلوّح بساطوره المخيف ويهوي به متخذاً أوضاعاً مسرحية ، مُرسلاً في كل مرة صوت « غيك » وقد علت وجهه انطباعة ضارية ، فيدبّ الذعر في نفسي ويستبدّ بي الخوف من أن يُطيح برأس احد او بيده حقاً .

وانفقت فترة الصباح كلها في دكان بروكوفي ، حتى إذا شخصت آخر الامر الى مقرّ الحاكم كانت رائحة اللحم والدم تفوح من معطفي . وكانت حالتي النفسية أشبه بحالة امريء وُضع في يده رمحٌ ومضى للقاء دبٍّ من الدببة . وأنا اذكر ذلك السلم الطويل ، المغطى ببساطٍ مخطّط ، والموظف الفتى ذا الازرار اللامعة الذي

دلني على الباب ، في بكم ، وبيديه الاثنتين ، وركض ليُعلم الحاكم بمجيئي . ودخلت الى قاعة مؤثثة تأثيثاً مترفاً ولكنه جافٍ خلوٌ من الذوق . وكانت المرايا العالية الضيقة القائمة في الفسحات بين الجدران ، وسُجف النوافذ الصفراء الزاهية تصدم العين ، على نحوٍ بغيض جداً . وكان في ميسور المرء ان يرى أن الحكام قد غُيّروا ، ولكن الاثاث ظلّ على ما كان عليه . ومرةً ثانية أوما الموظف الشاب بيديه الاثنتين الى الباب ، وتقدّم الى مائدة خضراء كان يقف أمامها جنرال يزين صدره وسام فلاديمير .

واستهلّ الجنرال كلامه ممسكاً برسالةٍ في يده ، فاتحاً فمه فتحاً عريضاً مثل حرف « O » مستدير ، فقال :

« لقد دعوتك ، يا سيد بولوزنيف ، لاخبرك ما يلي : إنّ أباك الذي يتمتع باحترام عظيم ، التمس من نقيب الاشراف ، شفهياً وتحريرياً ، أن يدعوك ويُظهر لك تنافي مسلكك مع مكانة طبقة النبلاء التي تتمتع بشرف الانتساب اليها . وإذْ قد رأى صاحب السعادة الكسندر بافلوفيتش ، وهو في ذلك على حق ، ان سلوكك قد يشكّل مثلاً سيئاً ، وأن مجرد الاقناع من جانبه قد لا يكفي ، وأن التدخل الرسمي الجدي شيء اساسيّ ، فقد وجّه اليّ هذه الرسالة مضمّناً إياها آراءه فيك ، وهي آراء أشاركه فيها . »

قال ذلك في هدوء ، وفي احترام ، وقد وقف منتصب القامة وكأنني أنا رئيسه الأرقى منه رتبةً ، ونظر اليّ نظرة لا تنطوي على شيء من القسوة . لقد بدا وجهه بالياً ذابلاً ، وكان مليئاً

بالتجاعيد . وكان تحت كلٍّ من عينيه جيبٌ ، وكان شعره مصبوغاً . ولم يكن في ميسور المرء أن يجزر ، على اساسٍ من مظهره ، حقيقة عمره ــ أربعين أم ستين .

وأردف :

« وأحسب انك تقــدّر لطفَ مولانا المبجّل ألكسندر بافلوفيتش ، الذي لم يوّجه الخطاب اليّ بالطريق الرسمي ، ولكن بالطريق الشخصيّ . وأنا كذلك كلّفتك الحضور الى هنا من طريق غير رسميّ ، واني لاتحدث اليك الآن لا بوصفي حاكماً ، بــل بوصفي رجلاً أجلّ أباك أعظم الاجلال . من اجل ذلك أتوسل اليك إما ان تغيّر نهجك في الحيــاة وتعود الى النهوض بالمهامّ اللائقة بمكانتك الاجتماعية ، وإما أن تجتنب ضرب المثل السيء ، فتهاجر الى منطقة أخرى ليس يعرفك فيها أحد ، وهناك يكون في استطاعتك أن تختار المهنة التي تحلو لك . حتى اذا أحجمتَ عن اختيار ايّ من الخطّتين ، اضطررتُ الى أن اتخذ اقسى التدابير ضدك . »

ووقف نصفَ دقيقة صامتاً ، ناظراً إليّ وقد فغر فاه .

ثم سأل :

« هل انت نباتي ؟ »

ــ « لا ، يا صاحب السعادة . أنا آكل اللحم . »

وجلس ، وجذب اليه بعض الاوراق . فما كان مني الا ان انحنيت وانصرفت .

وكان النهار قد اوشك ان ينتصف فلم أجد من المناسب ان

امضي الى العمل ، قبل الغداء . وهكذا قصدتُ الى البيت لأنام ، ولكنّ عينيّ لم تغتمضا بسببٍ من شعور كريه سقيم ، استبدّ بي من أثر ذهابي الى المسلخ وحديثي مع الحاكم . حتى اذا هبط الليل ، شخصتُ مكتئب النفس منحرف المزاج الى بيت ماريا فيكتوروفنا ، وحدثتها عن اجتماعي الى الحاكم ، فيما حدّقت هي اليّ في قلق وارتباك وكأنها لم تصدّق ذلك . ثم انها شرعت ، فجاءة ، تضحك في ابتهاج ضحكاً عالياً منفعلاً ليس يقدر عليه غير الدمثي الأخلاق المحبي الضحك ، من الناس .

واخيراً قالت ، وهي تكاد تسقط على الارض من شدة الضحك ، وتستند الى المائدة خشية ذلك :

« ما اطرف ان يروي المرء هذا في بطرسبرج ! ما أطرف ان يرويه في بطرسبرج ! »

٩

صرنا الآن نجتمع على غير انقطاع ، وفي بعض الأحيان مرتين يومياً . كانت تفد الى المقبرة كل يوم تقريباً ، بعد الغداء ، وتقرأ ما نُقِش على الصلبان وشواهد القبور فيما هي تنتظر مجيئي . وكانت تفدُ ، بعض الاحيان ، على الكنيسة ، فتقف الى جانبي وتراقبني وانا اعمل . والواقع ان عمل الرسامين والمذهّبين الساذج ، وتأملات راديش الحكيمة ، وعدم اختلافي في المظهر الخارجي عن سائر العمال ، واشتغالي مثلهم وانا مرتدٍ صديريتي ، ومن غير ما جوارب ، ومخاطبتهم اياي في بساطة وطَبَعية — كل اولئك

كان جديداً بالنسبة اليها ، فهو يؤثر في نفسها اعظم التأثير . وذات يوم ناداني احد الدهانين على مسمع منها ، وكان يرسم حمامة على السقف :

« ميسيل ، ناولني الدهان الابيض . »

وناولته ما طلب . حتى اذا هبطتُ الصقالة الخشبية الواهنة ، رنت اليّ ، وقد اغرورقت عيناها بالدمع ، وابتسمت .

وقالت :

« أيُّ عزيز انت ! »

وذكرتُ من عهد طفولتي كيف ان ببغاء اخضر يملكه احد اثرياء البلدة فرّ من قفصه ، وكيف ان الطائر الجميل طوّف في البلدة نحواً من شهر ، متنقلاً من حديقة الى حديقة ، شريداً وحيداً . لقد اذكرتني ماريا فيكتوروفنا بذلك الطائر .

وقالت لي وهي تضحك :

« الحقّ انه ليس عندي مكان اقصد اليه ، في هذه الايام ، غير المقبرة . لقد امست البلدة رتيبة مملة . وفي بيت آزوغين لا يزال القوم يتلون ، ويغنون ، ويلثغون . لقد غدوتُ اكرههم في الفترة الاخيرة . إن شقيقتك مخلوقة غير اجتماعية . والآنسة بلاغوفو تكرهني لسبب ما . أنا لا أبالي بالمسرح . قل لي اين ينبغي ان اذهب ؟ »

وحين كنت اقصد لزيارتها كانت رائحة الدهان والتربنتين تفوح مني ، وكانت يداي مدبوغتين — وكانت هي تحب ذلك . كانت تسألني ان ازورها في ثياب العمل العادية ، ولكن تلك الثياب كانت

توقع في نفسي ، بعد ان اجلس في ردهة الاستقبال ، شيئاً من الارتباك . لقد استشعرتُ الضيق والحرج وكأنما كنت ألبس ثوباً عسكرياً ، ومن اجل ذلك كان من عادتي ان ألبس بنطلوني الصوفي حين ازورها . ولم تكن تحب ذلك .

وذات يوم قالت لي :

« ينبغي ان تُقرّ بأنك لا تستشعر الراحة التامة في شخصيتك الجديدة . إن ثيابك العمالية لا تبدو طبيعية عليك ، انها توقع في نفسك الارتباك . قل لي ، أليس مردّ ذلك الى انه ليس لك مُعتقد راسخ ، ولست تستشعر الرضا والارتياح ؟ ان نوع العمل الذي اخترته بالذات — الرسم والدهان — ليس يرضيك من غير شك ، أليس كذلك ؟ »

قالت ذلك وهي تضحك ، ثم اضافت :

« انا اعرف ان الدهان يجعل الاشياء تبدو اجمل مما هي ويزيد في عمرها ، ولكن هذه الاشياء خاصةً بالاثرياء الذين يعيشون في المدن ، وهي على اية حال ضرب من الترف . والى هذا ، فقد قلتَ انت نفسك ، غيرَ مرة ، ان على كل امرىء ان يكسب خبزه من طريق العمل بيديه ، ومع ذلك فأنت تكسب مالاً ، وليس خبزاً . لماذا لا تلزم المعنى الحرفي لكلماتك ؟ ينبغي لك ان تتصرف الى كسب الخبز ، يعني يتعين عليك ان تحرث ، وتبذر ، وتحصد ، وتدرس ، او تعمل شيئاً ذا صلة مباشرة بالزراعة ، من مثل العناية بالأبقار ، او عزق الارض ، او بناء الاكواخ الخشبية ... »

وفتحت خزانةً مليحة قائمةً الى جانب الطـــاولة التي تكتب عليها ، وقالت :

« أقول لك هذا كله لأني أريد ان أُطلعك عـــلى سري . ودونك هو ! هذه هي مكتبتي الزراعية . إن عندي ، ههنـــا ، حقولاً وبستان خضَر وحديقةً وفناء للأنعام وخلايا نحـل . وأنا اطالع ذلك في نهم ، حتى لقد حفظت هذا العلم كله حتى دقـائقه الصغرى . والحلم الذي يراودني ، أو الرغبة الأثـيرة لديّ ، ان اذهب الى أرضنا في دوبتشنيا حالما يحلّ شهر آذار . إن كل شيء رائع هناك ، بديعٌ ، اليس كذلك ؟ ولسوف أُنفق السنة الاولى في دراسة المنطقة وأنفذ الى حقائق الاشياء ، لأبدأ العمل بنفسي ، أحسن ما يكون البدء ، في السنة التالية ، مفرغةً فيه جهدي كله . لقد وعـدني أبي بأن يمنحني دوبتشنيا ، ولسوف أعمل بهـا ما يحلو لي تماماً . »

واذْ شاع الدم في وجهها ، واغرورقت عيناها بدمع التأثر ، وأطلقت ضحكةً قلبية ، فقد انشأت تحلم ، جهاراً ، بنوع الحياة التي سوف تحياها في دوبتشنيا ، وما أعظم ما ستنطوي عليه من الطرافة والأمتاع ! وحسدتُها . كان آذار على الابواب . وكانت الأيام تتطاول يوماً بعد يوم . وفي الايام المشمسة المشرقة كانت المياه تتساقط من السطوح في منتصف النهار ، وعبقت الدنيـــا بعبير الربيع . وتُقتُ انا ايضاً الى الحياة في الريف .

وحين قالت انها تعتزم الانتقال الى دوبتشنيا ، أدركت أنه يتعين عليّ ان أبقى في البـلدة وحيداً ، وأحسست أني احسدها

على خزانة كتبها وزراعتها . كنت لا أعرف شيئاً عن العمل الزراعي ، وما كنتُ أحبه ، وكان ينبغي لي ان اقول لها ان العمل على الأرض كدحٌ عبوديّ ، ولكني ذكرتُ ان ابي قال غير مرة شيئاً مماثلاً ، فأمسكت عن الكلام .

وأقبل الصوم الكبير . ورجع فيكتور إيفانيتش ـ وكنت قد بدأتُ أنسى وجوده ـ من بطرسبرج . وكان رجوعه على غير توقُّع ، فهو لم يبعث حتى ببرقية يُعلن فيها أنه قادم . وحين مضيتُ الى دارهم ، شأني دائماً ، عند المساء ، ألفيته يذرع ردهة الاستقبال جيئةً وذهوباً ، راوياً قصةً ما ، وقد غسل وجهه وحلق ذقنه منذ قريب ، وبدا أصغر من سنّه الحقيقية بعشر سنوات . وكانت بنته راكعةً على الأرض ، تُخرج من حقائبه عُلباً وزجاجاتٍ وكتباً وتُسلمها الى بافيل ، الخادم . وعلى نحو غير إرادي ارتددتُ خطوةً الى الوراء عندما رأيت المهندس ولكنه بسطَ كلتا يديه اليّ ، وقال مبتسماً ، كاشفاً عن أسنانه القوية البيضاء التي تشبه اسنان سائق المزلجة الخزفيّ :

« ها هوذا هنا ، ها هوذا هنا ! انا سعيد جداً بأن اراك ، يا حضرة دهان البيوت ! لقد اخبرتني ماشا بكل شيء ؛ ولقد كانت تسبّح بحمدك وتطري سجاياك . وإني لأفهم ذلك وأقرّه . »

وهنا أمسك بذراعي وأردف :

« لأن يكون المرء عاملاً صالحاً أدلّ على الأخلاص ورقة الأحساس من ان يُتلف ورق الحكومة ويضع قبعة ذات شريط حريريّ على رأسه . ولقد عملتُ ، أنا نفسي ، في بلجيكا بهاتين

اليدين نفسيهما، ثم سلخت سنتين اشتغلت فيها عاملاً ميكانيكياً.»

كان يرتدي سترة قصيرة من قماش غليظ، ونعلاً بيتياً. وكان يمشي مشية رجل يشكو النقرس او داء المفاصل، فهو يتمايل بعض الشيء من جانب الى جانب، ويفرك يديه. وغمغم بكلام ما، وهرّ وهو يهصر نفسه هريراً يؤذن بارتياحه لعودته آخر الامر، الى بيته، وتمكنه من الاستمتاع بحمامه الرشاش الاثير لديه.

وقال لي على مائدة العشاء:

«ليس ثمة خلاف. ليس ثمة خلاف. أنت رجل طيبٌ وفاتن ولكنك لسبب من الاسباب ما إن تستغرق في العمل اليدوي، أو تشرع في إنقاذ الفلاحين حتى تنتهي آخر الامر الى ان تصبح مجرد منشقٍّ عن الجماعة ليس غير. ألست منشقاً عن الجماعة؟ ها إنك تأبى أن تشرب الفودكا. أيّ معنىً لهذا اذا لم يكن معناه انك منشقّ؟»

ولكي أرضيه، شربت بعض الفودكا، واحتسيت شيئاً من الخمر أيضاً. وذقنا الجبن، والنقانق، والفطائر، والمخللات، وضروب المشهيات التي حملها المهندس معه، والخمر التي جاءت في غيبته من بعض البلدان الاجنبية. وكانت الخمر من الطراز الاول. ولسببٍ ما كان المهندس يستورد الخمر والسيجار من البلدان الاجنبية من غير ان يدفع ضريبة جمركية. وكان بعضهم يبعث اليه بالكافيار وسمك الدُّخس المجفف، مجاناً. ولم يكن يدفع إجارةً للمنزل الذي يشغله، لان مالك البيت كان يقدّم الكيروسين للخط الحديدي. وعلى الجملة فقد أوقع هو وابنته في

ذات نفسي ان خير ما في الوجود كان في تصرفها ، وأنه يقدّم اليها بالمجان .

وأقمت على زيارتي لها ، ولكن من غير تلك اللهفة السابقة . لقد جعلني المهندس أكظم نفسي ، فلست استشعر أمامه بالانطلاق . لقد عجزتُ عن ان أواجه عينيه الصافيتين السليمتي الطوية ، وكانت تأملاته تتعبني وتمرضني . وكان مما يمرضني ، كذلك ، ان أتذكر أني عملت يوماً في خدمة هذا الرجل الأحمر الوجه ، البدين الجسم ، وأنه كان قاسياً عليّ الى حدٍ وحشي . صحيح انه طوّق خصري بذراعه ، وخفق على كتفي بطريقة ودية ، وأقر طريقة حياتي ، ولكني شعرت أنه ما يزال ، شأنه من قبل ، يزدري حقارتي ، وأنه يحتملني إرضاءً لابنته ليس غير ، ولم يعد في طوقي الآن أن اضحك وأتحدث كما أحبّ ، واتخذ مسلكي وجهةً غير اجتماعية ، وبقيتُ أتوقع بين لحظة واخرى ان ينادي بلفظ « بانتيلي » فعله مع خادمه بافيل . وهنا ثارت كبريائي كريفيّ وكعاملٍ ثورة جامحة . فقد كنتُ أنا ، الرجل البروليتاري والدهّان المنزليّ ، أقصد كل يوم لزيارة نفر من الاغنياء الغرباء عني ، والذين كانت البلدة كلها تنظر اليهم نظرتها الى الأجانب ، وكل يوم احتسي معهم الشراب النفيس وآكل المآكل الفاخرة . . . ولم يرتضِ ضميري هذا الوضع . فكنت في طريقي الى البيت اجتنب ، في نكد ، الاجتماع بالناس ، وأتطلع اليهم من تحت حاجبيّ وكأنما كنت منشقّاً عن الجماعة حقاً . ليس هذا فحسب بل لقد كنت أستشعر الخجل من بدانة جسمي .

وفوق ذلك كله ، فقد خشيت ان أفتن . فسواء أكنت أمشي في الشارع ، أم أشتغل ، ام أتحدث الى بعض الرفاق ، كان ذهني مستغرقاً طوال الوقت في شيء واحد ، هو الذهاب مساءً لزيارة ماريا فيكتوروفنا ، منهمكاً في تصور صوتها ، وضحكتها ، وحركاتها . وكنت ساعة أستعد للقيام بزيارتها أنفق فترة طويلة أمام مرآة حاضنتي الحرقاء ، وانا أربط عقدة رقبتي . وكان بنطلوني الصوفي الغليظ كريهاً في عينيّ ، وكنت أعاني اقسى العذاب ، وازدري نفسي — في الوقت ذاته — لتفاهتي الى هذا الحد . وكانت اذا ما خاطبتني من جانب الغرفة الاخرى قائلة إنها لمّا ترتدِ ملابسها بعد وانها ترجو اليّ ان انتظر ، اصخت الى ارتدائها ثيابها ، وقد غلبني الاهتياج ، واحسست وكأن الارض تكاد تميد تحت قدمي . وكنت اذا ما لمحت وجه امرأة في الشارع ، ولو من مدى بعيد ، أسارع الى عقد مقارنة بينها وبين ماريا . لقد بدا لي أن جميع بناتنا ونسائنا مبتذلات ، وانهن يرتدين ملابس سقيمة غير لائقة ، وانهن لا يحسنّ المحافظة على مكانتهن . وكانت هذه المقارنات تثير فيّ شعوراً من الاعتزاز : لقد كانت ماريا فيكتوروفنا أفضلهن جميعاً ! ورأيتها في ما يرى النائم ، ورأيت نفسي معها .

وذات مساء تناولنا طعام العشاء مع المهندس فأكلنا سرطاناً بحرياً كاملاً . وفيما كنت عائداً ، بعد ذلك ، الى البيت ، ذكرت ان المهندس ، دعاني مرتين ، ونحن على المائدة ، « يا صاحبي العزيز » فقلت في ذات نفسي إنهم يعاملونني بلطف بالغ في ذلك المنزل ، كما يعاملون كلباً كبيراً بائساً طرده أصحابه ، وإنهم يتسلون بي ،

حتى اذا دبّ الملـــل الى نفوسهم طردوني كما يطرد الكلب . واستشعرت الخجل ، واحسست اني جُرحت ، جرحت حتى البكاء وكأنما وجهت اليّ اهانة ، فرفعت بصري الى السماء ، وعاهدت نفسي على ان اضع حداً لهذا كله .

ولم أشخص في اليوم التالي الى بيت دولزيكوف . وفي ساعة متأخرة من الليل ، وكانت الظلمة دامسة والمطر هاطلاً ، تمشيت في شارع دفوريانسكي الكبير ، ورحت اتطلع الى النوافـــذ . كان كل من في بيت آزوغين قد آوى الى النوم ، فليس ينبعث منه غير نور مضاء في احدى الغرف القصية . ذلـــك بأن السيدة آزوغين كانت في غرفتها الخاصة تخيط على ضوء شموع ثلاث ، متوهمة أنها بذلك تصارع الخرافة وتتحداها . وكان بيتنا نحن غارقـاً في الظلام ، ولكن بيت دولزيكوف كان على نقيض ذلك . كانت نوافذه مضاءة ، ولكنْ لم يكن في ميسور المرء ان يتبيّن شيئاً من خلال الازهار والستجف . وظللت أذرع الشارع جيئة وذهوباً . وبلّل مطر آذار البارد ثيابي كلها . وسمعتُ أبي وهو عائدٌ من النادي . ووقف لدى الباب وأنشأ يقرعه . وبعد دقيقة بـدا من جانب النافذة ضوء ، فرأيت أختي تسرع لتفتح له الباب ، حاملة المصباح بيد ، مسوّية بالأخرى شعرها الاثيث ، ثم اخذ والدي يذرع ردهة الاستقبال ، متحدثاً فاركاً يديه ، فيما جلستْ أختي على كرسي منخفض ، مستغرقةً في التفكير ، غيرَ مصغية الى ما يقول .

ولكنهما ما لبثا ان غادرا الردهة ، وغادرها الضوء معهما ...

وتطلعت الى بيت المهندس ، فاذا هو غارق في الظلام أيضاً . وفي العتمة والمطر استشعرت أني وحيـــدٌ مستوحش ، وأني نهبٌ لاهواء القدر . وأحسست ان جميع أعمالي ، ورغباتي ، وكل ما فكرت به أو قلته حتى ذلك الحين لم يكن شيئاً مذكوراً بالقياس الى وحدتي ، وبالقياس الى عذابي الحاليّ ، والعذاب الذي ينتظرني في المستقبل . وأسفاه ، إن افكار المخلوقات البشرية وأعمالها هي دون آلام تلك المخلوقات وعذاباتها شأناً ! ومن غير أن ادرك ادراكاً واضحاً ما الذي كنت أعمله ، جذبت الجرس المعلق على باب بيت دولزيكوف ، وكسرته ، وانطلقت أعدو في الشارع مثل صبي شرير ، والذعر يعصف بفؤادي ، وانا أتوقع ان يندفعوا ، كلّ لحظة ، الى الطريق ويكتشفوا امري . حتى اذا وقفتُ عند نهاية الشارع لآخذ نَفَساً ، لم يكن في مكنتي ان اسمع شيئاً غـــير صوت المطر ، وصوت حارس يضرب ، في مكانٍ ما ، على صفيحـــة من حديد .

وطوالَ اسبوع ، لم اطأ منزل دولزيكوف . كان بنطلوني الصوفي الغليظ قد بيع . ولم يكن ثمة عملٌ في صناعـة الدهان . ومن جديد ، عرفت غُصص الجوع وآلامه . وكسبت ما بين البنسين والأربعة البنسات يومياً من طريق العمل الشاق الكريه حيثما وجدته . وفيما انا أكافح مخوّضاً في الوحـــل البارد حتى ركبتيّ ، منهكاً صدري ، حاولتُ ان اخنق ذكرياتي ، وان أعاقب نفسي على ضروب الجبن والاغذية المعلّبة التي نعمتُ بها على مائدة المهندس . ولكن برغم هذا كله ، كنت لا استلقي على

الفراش ، نديّاً جائعاً ، حتى يشرع خيالي الآثم في رسم صور بارعة مُغرية . وفي دهشٍ ادركت اني عاشق ، عاشق تيّمه الحب ، وغرقتُ في نومٍ عميق ثقيل شاعراً بأن العمل الشاقّ لم يزد جسمي غير قوة وفتاء .

وذات مساء بدأ الثلج يتساقط على نحو غير مستحب ، وهبت الريح من الشمال ، وكأن فصل الشتاء قد اقبل من جديد . وحين رجعت من العمل ، ذلك المساء ، وجدت ماريا فيكتوروفنا في غرفتي . كانت ترتدي سترتها الفرائية ، وكانت كلتا يديها في قفازها .

— « لماذا لا تأتي لتراني ؟ » كذلك تساءلتْ رافعةً عينيها الصافيتين البارعتين . واصابني الابتهاج بارتباك عظيم ، فوقفت تجاهها متصلب الاوصال كما كنت أقف امام أبي كلما اعتزم ان يضربني . ونظرت الى وجهي ، فكان في ميسوري ان أرى ، من خلال عينيها ، انها أدركت سر الاضطراب الذي استبد بي .

وكرّرت :

« لماذا لا تأتي لتراني ؟ اذا كنت لا تريد ان تأتي فأني ، كما ترى ، آتيك بنفسي . »

ونهضتْ واقتربتْ مني .

وقالت وقد فاض الدمع من عينيها :

« لا تهجرني . انا وحيدة ، وحيدة بكل ما في الكلمة من معنى . »

وشرعت تنشج وتنتحب . ثم انها اخفت وجهها بقفازها وقالت :

« وحيدة ! ان حياتي صعبة ، صعبة جداً . وفي العالم كله ليس لي احد سواك . فلا تهجرني ! »

وتبسمتْ وهي تبحث عن منديل تمسح به دموعها . وران علينا الصمت فترةً ما . ثم إنني طوقتها بذراعيّ ، وقبّلتهـــا ، خادشاً خدي بدبوس قبعتها خدشاً أسال منه الدم .

وشرعنا نتحدث وكأننا كنا على أتمّ الوفاق منـــذ عصور متطاولة .

١٠

وبعد يومين اثنين أرسلتني الى دوبتشنيا ، فغمرتني موجة من السعادة بذلك . وفيما تقدّمتُ الى المحطة ، وعندما ركبت القطار آخر الامر ، اخذت أضحك ضحكاً موصولاً لغير ما سبب ظاهر ، فنظر الناس اليّ وكأنني شاربٌ مُثِل . كان الثلج يتساقط ، وكانت ساعات الصباح ما تزال تشهد موجةً من الصقيع ، ولكن الطرق كانت قـــد انتهت الى ان تمسي داكنة اللون ، تحوم حولهـــا الزّيغان وهي تنعب .

واعتزمتُ بادىء الامر أن أُهيىء مسكناً لنا ، نحن الاثنين ، ماشا وانا ، في الجانب المقابل لبيت السيدة تشيبراكوف الصغير ، ولكن بدا لي أن الحمام والبطّ كانت قد عاشت هناك فترة طويلة من الزمان فليس من سبيل الى تنظيف المكان من غـــير تدمير عدد كبير من الاعشاش . وهكذا لم يكن لنـا مفرٌ من العيش في تلك الغرف غير المريحة التي يحفل بها البيت الكبير والمزوّدة

بوقاء يردّ الشمس عنها . وكان الفلاحون يطلقون على ذلك البيت اسم القصر ، وكان يتألف من عشرين غرفةً أو يزيد ، ولكنها خالية من الاثاث فليس فيها غير بيانو ، وكرسي ذي ذراعين من كراسي الاطفال ملقىً في سماوة البيت ، ولو ان ماشا حملت من البلدة كل ما تملكه من اثاث لما استطاعت ان تتخلص من انطباعة الفراغ والبرد الهائلة . وهكذا اخترتُ ثلاث غرف صغيرة ذات نوافذ تطل على الحديقة وانصرفتُ الى العمل منذ الصباح الباكر حتى هبوط الليل ، معيداً تلك الغرف الى وضعها الطبيعي ، مركباً لنوافذها ألواحاً زجاجية جديدة ، مورقاً الجدران ، سادّاً الاخاديد والشقوق التي في الارض . وكان ذلك عملاً سهلاً سائغاً . وكنت لا افتأ اهرع الى النهر ، لارى ما اذا كان الجليد قد ذاب ؛ وظللتُ اتخيل ان الزرازير كانت تحلق في الجوّ . وعند المساء ، كنت افكر في ماشا واصيخ في حبور عارم وبهجة آسرة الى جلبة الفئران والرياح المدندنة ، القاوعة فوق السقف . لقد بدا وكأن شبحاً قديماً من الاشباح المنزلية كان يسعل في سماوة البيت .

كان الثلج كثيفاً . لقد تساقط مقدارٌ منه كبير حتى في أواخر آذار ، ولكنه ذاب في سرعة ، بمثل سحر الساحر ، واندفعت فيضانات الربيع اندفاعاً صاخباً . فلم يكد شهر آذار يطلّ حتى كانت الزرازير قد استهلت ضجيجها ، وحتى أنشأت الفراشات الصفر تحوّم في الحديقة . كان الجوّ رائعاً ، وفي كل يوم ، كنت امضي الى البلدة ، قبيل المساء ، لألتقي ماشا ، وما كان أبهج السير حافيَ القدمين عبر الطريق الآخذة في الجفاف شيئاً بعد شيء ، والتي

كانت ما تزال غضة طرية. حتى اذا انتهيت الى منتصف الطريق، جلست وتطلّعت نحو البلدة ، غير مجتوىء على الاقتراب منها . كان منظرها يزعجني . وكنت لا افتأ أتساءل أي موقف سيتخذه تجاهي أولئك الذين يعرفونني اذا ما سمعوا بنبأ حبي . ما الذي سيقوله أبي ؟ وأقلقني على وجه الخصوص التفكير بأن حياتي غدت اكثر تعقداً ، وانني فقدت القدرة على تقويمها فقداناً كاملاً ، وانها كانت تحملني مثل المنطاد ، الى مكانٍ لا يعلمه غير الله . انا لم اعد أفكر كيف اكسب خبزي اليومي ، وكيف أعيش ، بل أخذت أفكر في شيء لست اعرفه على التحقيق . . .

وكان من دأب ماشا ان تقدّ على متن عربة ، فكنت استقلّها الى جانبها وننطلق الى دوبتشنيا ، وقد غمرنا شعور بالبهجة والحرية. بيد أني كنت انتظرها بعض الاحيان الى ما بعد غروب الشمس ثم انقلب على عقبيّ كئيباً محزون الفؤاد ، متسائلاً لماذا لم تأتِ ، حتى اذا بلغت الباب الرئيسي او دخلت الحديقة التقيت صورة عذبة لم اكن أتوقع ان اجدها هناك - التقيتها هي ! ذلك بأنها تكون قد قدمت بالقطار الحديدي ثم أقبلت من المحطة سعياً على القدم . وأيُّ بِشْر كان يغمرني آنذاك ! والحق انها بدت في ثوبها الصوفي البسيط ، وقد اعتمرت بعصابة ، ولبست ظلالة تقي عينيها من اشعة الشمس ، وانتعلت حذاءً طويل الساق ، اجنبيّ الصنع ، غالي الثمن - بدت في ذلك كله اشبه بممثلة موهوبة تمثل دور عاملة صغيرة . وكنا نجيل الطرف في ممتلكاتنا ، ونقرر أيّ الغرف ستكون لها ، وايها ستكون لي ، واين يحسن ان

نجعل المدخل المظلل بالاشجار ، وجنينة الخُضَر ، وقفران النحل .

وكان عندنا الآن ، دجاج ، وبطّ ، واوزّ ، وكنا نحبّها لأنها ملكٌ لنا . وكان عندنا للزرع شوفان ، وبرسيم ، وعشب تيموثاوس ، وحنطة سوداء ، وبذور خُضَر . وكنا نلقي نظرة على هذا المخزون كله ونتحدث عن الغلال التي سنجنيها منه . وكل شيء قالته ماشا ، بدا لي بارعاً جميلاً الى حدّ خارقٍ العادة . تلك كانت اسعد ايام حياتي .

ولم يكد ينقضي اسبوع القديس توما حتى عُقِد قراننا في كنيسة ابرشيتنا بقرية كورياوفكا ، على بعد ميلين من دوبتشنيا . وكانت ماشا ترغب في ان يتمّ كل شيء في سكون . ونزولاً عند رغبتها كان عرّابونا غلماناً من الفلاحين ، وأنشد حافظ الاواني والاثواب الكنسية وحده ، ثم انقلبنا من الكنيسة في عربة صغيرة وثابة ذات جواد واحد ساقتها ماشا بنفسها . وكان ضيفنا الوحيد الوافد من البلدة هو أختي كليوباترة ، وكانت ماشا قد وجهت اليها الدعوة قبل ثلاثة ايام من الزفاف . وأقبلت أختي وقد ارتدت ثوباً أبيض وقفازاً . وخلال عقد القران أنشأت تبكي ، في سكون ، ابتهاجاً وحناناً . كانت انطباعتها أمومية تنضح طيبة ورقة . لقد انتشت بسعادتنا ، وابتسمت وكأنما يلفّها بحرانٌ عذب . وحين نظرتُ اليها اثناء الزفاف ادركتُ أنه ما من شيء في العالم يسمو عندها على الحبّ ، الحب الأرضيّ ، وانها كانت تحلم به سراً ، وفي جبانة ، ولكنْ على نحو موصول ومتّقد . وعانقتْ ماشا وقبّلتها ، ومن غير ان تدري كيف

تعبّر عن عظيم طربها قالت لها عني :

« إنه طيب ! انه طيب جداً ! »

وقبل ان تعود ارتدت ملابسها العادية ، وقادتني الى الحديقة لتحدّثني على انفراد .

قالت :

« لقد أوذي والدك اعظم الايذاء لأنك لم توجّه أيما كلمة اليه . كان ينبغي ان تطلب منه البركة . ولكنه في الحقّ مغتبط جداً . هو يقول ان هذا الزواج سوف يسمو بك في أعين الناس جميعاً ، وانك سوف تعتنق ، بتأثير من ماريا فيكتوروفنا ، نظرة اكثر جديةً الى الحياة . إننا لا نتحدث في سهراتنا ، الآن ، عن شيء غيرك ، وأمسِ استعمل في الواقع هذه العبارة : « ولدناميسيل » . وسرّني ذلك . فقد بدا لي وكأنما كان يدير في ذهنه خطةً ما . ويخيّل اليّ انه يريد ان يضرب لك مثلاً في الترفّع فيكون المبادر الى الكـــلام في الصلح . ومن الجائز جداً ان يفد لرؤيتك بعد يوم أو يومين . »

وسارعتُ الى رسم إشارة الصليب فوقي عدة مرات ، وقالت :

« حسناً ، ليكن الرب معك . كن سعيداً . آنيوتا بلاغوفو فتاة بارعة جداً . لقد علّقت على زواجك بقولها ان الله قد ابتلاك بمحنة جديدة . ومن الثابت ان الحياة الزوجية لا تحمل البهجـــة فحسب ، ولكنْ تحمل العذاب ايضاً . لقد قُدِّر عليها ان تكون كذلك . »

ورافقناها ، في طريق عودتها ، طوال ميلين اثنين . ثم رجعنا

في هدوء وصمت ، وكأننا كنا نستريح . وامسكتْ ماشا بيدي ، وغمرت قلبي البهجة ، ولم أستشعر ايّ ميل الى الكلام عن الحب . لقد غدونا الآن اشد تمازجاً واتصالاً بعد الزواج ، وأحسسنا أنه ما من شيء يستطيع ان يفصل ما بيننا .

وقالت ماشا :

« اختك مخلوقة قريبة الى القلب . ولكن يبدو وكأنها قد احتملت صنوف العذاب طوال سنوات . يخيّل اليّ ان أباك رجلٌ فظيع . »

وشرعت أحدثها كيف نشأتُ انا وأختي ، وأيّ نكالٍ أبله كانت طفولتنا . وحين سمعتْ أن أبي ضربني منذ فترة غير بعيدة ، ارتعدت واقتربت مني اكثر من ذي قبل وقالت :

« لا تحدّثني اكثر مما فعلت . إنه شيء فظيع ! »

ولم تفارقني قط بعد ذلك . لقد عشنا معاً في الغرف الثلاث في ذلك البيت الكبير ، حتى اذا هبط الليل أو أحكمنا بالحديد ايصاد الباب المؤدي الى الجزء الخالي من المنزل ، وكأننا يعيش هناك شخص لا نعرفه ، فنحن نخافه ونخشاه . وكنت انهض مبكراً مع الضحى ، وأنصرف في الحال الى القيام بمختلف الأعمال . كنتُ أصلح العربات ، وأشقّ ممراتٍ في الحديقة ، وأعزق مساكب الزهور ، وأدهن سطوح البيت . حتى اذا حان موعد بَذْر الشوفان حاولتُ ان أحرث الارض من جديد ، وأن أسوّيها ، وقمت بهذا كله في إخلاصٍ بالغ مجارياً عاملنا في ذلك . لقد أجهدتُ نفسي غاية الأجهاد ، فاذا بالمطر والريح الباردة

يحملان وجهي وقدميّ تحترق طوال ساعاتٍ بعد انقضاء العمل . وحلمتُ بحراثة الارض في موهن من الليل . ولكن العمل في الحقول لم يستهوني . لم اكن أفهم الزراعة ، ولم اكن لأبالي بها. ولعلّ مردّ ذلك الى أن اجدادي لم يكونوا من الفلاحين ، والى ان الدم الجاري في عروقي كان دماً مدينياً خالصاً . لقد أحببت الطبيعة حباً جماً . أحببتُ الحقول والمروج وبساتين الخُضرَ . ولكن الفلاح الذي يفرق التربة بحراثه ويستحث جواده البائس رطباً ممزق الثياب ، متطاول الرقبة كالكركيّ ، كان في نظري هو التعبير الحيّ عن القوة الخشنة ، الوحشية ، البشعة . وكلما وقعتْ عيني على حركاته الفظة الخرقاء أخذت افكر ، على نحو غير إرادي ، بالحياة الاسطورية التي عاشها الناس في الماضي السحيق قبل أن يعرفوا استعمال النار . والواقع ان الثور الضاري المنطلق مع جماعة الفلاحين ، والخيل المندفعة حول القرية ، الرافسة بحوافرها ، كانت توقع الذعر في فؤادي . وكل شيء ضخم قويّ مُغضبَ سواء أكان الكبش بقرنيه ، أو ذكر الأوزّ ، أو كلب الفناء، بدا لي وكأنه تعبير عن القوة الوحشية الخشنة ذاتها . وكان هذا المزاج يقوى عندي ويشتدّ ، حين تسوء حالة الجو بخاصة ، وتتدلى السحب الثقيلة فوق الارض السوداء المحروثة. وفوق ذلك فقد كنت اذا ما انصرفت الى الحراثة او البَذرْ ، ووقف اثنان أو ثلاثة من الناس يراقبون شغلي لم أستشعر ان هذا العمل كان مفروضاً فرضاً او محتّماً تحتيماً ، بل تراءى لي أنني إنما أمتع نفسي وأؤانسها . وكنت أوثر أن اقوم بعملٍ ما في الفناء ، ولم

يكن ثمة ما أحبه بقدر حبي دَهْنَ السطح .

وكان من دأبي ان أمضي عبر الحديقة والمرج الى طاحونتنا ، وكانت مؤجرة لفلاح من كوريلوفكا يدعى ستيبان ، وهو رجل مليح داكن الوجه ذو لحية أثيثة سوداء تبدو عليه علائم القوة البالغة . ولم يكن ليحبّ عمل الطحان ، وينظر اليه نظرته الى عمل كئيب غير رابح ، وهو لم يعش في الطاحونة إلا هرباً من العيش في البيت . وكان يشتغل بصناعة الجلد ، فهو مطوّق دائماً برائحة من القطران والجلد عذبة . وكان غير مولعٍ بالكلام . وكان خاملاً بليداً فهو ينفق ساعاته في المدخل او على ضفة النهر يهمهم « اوو — لوو — لوو » . وكانت زوجته وحماته ، وكلتاهما بيضاء البشرة نحيلة وديعة ، تأتيان بعض الاحيان من كوريلوفكا لرؤيته . وكانتا تنحنيان له انحناءةً دانية وتخاطبانه بلهجة رسمية : «ستيبان بيتروفيتش » ، على حين يستمرّ هو قاعداً على ضفة النهر مهمهماً في رفق « أوو — لوو — لوو » من غير ان يجيب بكلمة او حركة على انحناءاتهما . وتنقضي ساعة في صمت ، ثم تتبعها أخرى . واخيراً تتهامس حماته وزوجته ، وتنهضان ، وتحدقان اليه فترة من زمان ، متوقعتين أن يجيل بصره في ما حوله . ثم إنهما تنحنيان انحناءة دانية ، وفي صوت عذب مترنم تقولان :

« الى اللقاء ، ستيبان بيتروفيتش ! »

وتمضيان لسبيلهما . وعندها يتناول ستيبان الرزمة التي تركتاها له ، وفيها شيء من البسكويت القاسي أو قميص ، ويتنهد قائلاً ، وهو يغمز بعينه في اتجاههما :

« جنس النساء ! »

وكانت الطاحونة ، ذات الرَحَوَيْن الاثنتين ، تعمل ليلاً ونهاراً . وكنت أمد يد المساعدة الى ستيبان . فقد احببتُ هذا النوع من العمـــل . حتى اذا غادر المكان كنتُ سعيداً بأن أحلّ محلّه .

١١

وبعد برهة من الجوّ المشرق الحارّ عرفت المنطقة فترة قصيرة من البرد . فطوال شهر نوار امطرت السماء ، وكان في صوت الطاحونة وصوت المطر ما يغري المـــرء بالتراخي والاستسلام للرقاد . لقد ارتجفت ارض الطاحونة ، وعبقت في الجو رائحـــة الدقيق ، وكان في ذلك أيضاً ما يُغري بالنعاس . وكانت زوجتي وقد ارتدت سترة قصيرة مخططةً بالفراء ، وانتعلت « كالوشاً » رجالياً عالي الساق ، تلتحق بي مرتين يومياً ، لتقول دائماً الشيء نفسه :

« وهذا ما يدعونه الصيف ! إنه اسوأ مما كان في تشرين الاول ! »

وكنا نتناول الشاي ونُعدّ العصيدة معاً ، او نقعد ساعات موصولة من غير ان نتكلم ، في انتظار انقطاع المطر . وذاتَ مرة قصد ستيبان الى السوق الدّورية ، فباتت ماشا الليلة كلها في الطاحونـة . حتى اذا استيقظنا لم يكن في طاقتنا ان نحزر كم الساعة ، لان السُحب الممطرة كانت تغطي السماء كلها . ولكن الديكة الناعسة كانت تصيح في دوبتشنيا ، وتداعت الاطيار في

المروج . ومن هنا ادركنا اننا افقنا في ساعة مبكرة ، مبكرة جداً . . . ومضيت انا وزوجتي الى بركة الطاحونة وسحبنا الشبكة التي القاها ستيبان امامنا في الليلة البارحة. فأذا بسمكة كبيرة من سمك الخرْمان تناضل في داخلها ، واخرى من سمك الانكوش تتلوى في جنباتها ، منشبة كلاليبها فيها :

وقالت ماشا :

« دعهما تذهبان . دعهما تتمتعان بالسعادة أيضاً . »

وإذ افقنا باكراً جداً ثم لم نأتِ عملا ما بعدئذ ، فقد بـدا ذلك النهار طويلاً جداً ، بل اطولَ يومٍ في حياتي. وحوالى المساء رجع ستيبان من السوق ، وعدتُ انا الى البيت .

وقالت ماشا :

« لقد جاء والدك اليوم . »

فسألتها :

« اين هو ؟ »

— « لقد ذهب . لم أرد ان اراه . »

وإذ رأت اني بقيت واقفـاً ملتزماً الصمت ، وأنّ الأسف اخذني على والدي ، قالت :

« ينبغي ان يكون المرء منسجماً مع نفسه . أنا لم أرد ان اراه ، ولقد بعثت اليه بكلمة قلتُ له فيها ان لا يزعج نفسه ويأتي لزيارتنا بعد اليوم . »

وبعد دقيقة واحدة غادرتُ البيت ومضيتُ الى البلدة لاشرح المسألة لوالدي . كانت الطريق موحلة ، زلقـة ، باردة . ولاول

obeikandi.com

مرة منذ زواجنا استشعرت فجاءةً اني محزون الفؤاد . وفي ذهني المُضْنى بذلك النهار الطويل القاتم ، عصفت فكرة تذهب الى انني في اغلب الظن احيا كما لاينبغي لي. كنت متعباً الى ابعد الحدود ، وشيئاً بعد شيء غلب عليّ الفنوط والكسل ، ولم اعد راغباً في ان اتحرك او افكر. وبعد ان اجتزتُ قسماً من الطريق ،عدلت ، بتلويحة من يدي ، عمّا كنت عزمت عليه وانقلبت على عقبيّ .

وكان المهندس ، وقد ارتدى معطفاً جلدياً ذا قبعة ، واقفاً في منتصف الفِناء .

— « اين الأثاث ؟ كان ثمّةَ هنا أثاث رائع على الطراز الامبراطوري . كان ثمة صور ، وزهريات ، على حين اصبح في ميسورك ان تلعب الكرةَ فيه ، الآن ! لقد اشتريت المنزل مع الأثاث . فليأخذها الشيطان ! »

وكان مويزي — وهو شاب في الخامسة والعشرين ، نحيلٌ مجدور الوجه ، ذو عينين صغيرتين وقحتين ، يعمل في خدمة ارملة الجنرال — واقفاً قرب المهندس مغضّناً قبعته بيديه . وكان أحد خديه اكبر من الآخر ، وكأنما اضطجع عليه فترة طويلة جداً .

وفي تردّد اجابه مويزي :

« لقد كنتَ سعيداً بأن تشتري المنزل دون أثاثه . هذا ما اذكره . »

— « إخرس ! » كذلك صاح المهندس ، وقد غدا وجهه قرمزياً ، وارتعد غضباً . . . وردّد الصدى صياحه ترديداً عالياً ، في الحديقة .

١٢

وكان مويزي يقف امامي كلما قمتُ بعملٍ ما في الحديقة او الفناء ، طاوياً ذراعيه خلف ظهره ، محدقاً اليّ بعينيه الصغيرتين تحديقاً كسولاً وقحاً . وكان هذا يثيرني الى درجة تحملني على ان اطّرح عملي وامضي .

ومن ستيبان سمعنا ان مويزي كان عشيق السيدة تشيبراكوف وقد لاحظت ان الناس كانوا اذا ما وفدوا عليها اقتراضاً لبعض المال يتصلون بادىء الأمر بمويزي ، وقد شهدت ذات يوم فلاحاً ، أسود من رأسه الى اخمص قدميه — ولا شك في انه احد حمّالي الفحم — ينحني راكعاً على قدمي مويزي. وكان في بعض الاحيان يعطي المال بنفسه ، بعد قليلٍ من الهمس ، ومن غير ان يراجع سيدته ، ومن هنا استنتجت ان له تجارة صغيرة يديرها لحسابه الخاص.

وكان من عادته ان يطلق النار في حديقتنا وتحت نوافذنا ، وينقل الاطعمة من قبونا ، ويستعير خيلنا من غير إذن. وهكذا داخلَنا الاستياء، وأخذنا نشعر وكأن دوبتشينا لم تكن ملكنا. وكانت ماشا تقول وقد عراها الشحوب :

« انستطيع حقاً ان نعيش مع هؤلاء الاخسة ثمانية عشر شهراً اخرى ؟ »

وكان إيفان ، ابن السيدة تشيبراكوف ، يعمل خفيراً في سكة حديدنا . لقد ازداد ضعفاً وهزالاً خلال الشتاء، حتى لقد اصبحت

كأس واحدة كافية لان تسكره، وحتى لقد صارت فرائصه ترتعد وهو واقف تحت أشعة الشمس . وكان يرتدي ثوب الخفراء الرسمي على كره ، ويستحي به ، ولكنه كان يعتبر وظيفته جيدة بسبب من انها تمكنه من سرقة الشموع وبيعها. والحق ان مركزي الجديد اثار في ذات نفسه حساً مزيجاً من الدهش والحسد ، وأملاً غامضاً في ان يوفق هو نفسه الى شيء مثل ذلك . وكان يراقب ماشا بعينين ذاهلتين ، ويسألني مم يتألف غدائي اليوم ، وقد رانت على وجهه انطباعة حزينة ، ضاربة الى العذوبة ، وانشأ يحرك اصابعه وكأنما يستشعر سعادتي بواسطتها .

وقال لي في جلبة ، معيداً إشعال سيجارته كل لحظة ـ وكان ثمة دائماً ركام من النفايات يجتمع حيث يقف إذ يتلف عشرات من عيدان الثقاب في اشعال سيجارة واحدة :

« إسمعْ ، يا افضل من لا شيء ! إسمع ، لقد غدت حياتي الآن اردأ ما تكون ، وأبشع ما تكون . واسوأ ما في الأمر ان ايّ ملازم يستطيع أن يصيح : « هاي ، هناك ، أيها الخفير! » ولقد وقعت في أذني اشياء كثيرة في القطار ، يا بنيّ ، وهل تدري ؟ لقد أدركتُ ان الحياة شيء وحشيّ ! والواقع ان أمي هي التي أتلفتني ! فقد أخبرني احد الاطباء ، في القطار ، انه اذا كان الابوان خليعين فعندئذ يصبح الاولاد سكّيرين او مجرمين . تأمّلْ ذلك ! »

وذات يوم قدم الى الفِناء مترنحاً . كانت عيناه تحدقان في ذهول ، وكانت أنفاسه لاهثة . لقد ضحك وبكى وهذى ،

وكأنما هو محموم ، ولم استطع ان التقط من حديثه المشوّش غير هذه الكلمات : « أمي ! أين أمي ؟» التي لفظها في إعوال كطفل أضاع أمه وسط حشد من الناس . وقدته الى حديقتنا ، ومددته تحت إحدى الاشجار ، وتناوبت انا وماشا القعود الى جانبه طوال ذلك النهار وتلك الليلة . كان مريضاً جداً . ولقد نظرت ماشا ، في اشمئزاز الى وجهه الشاحب الرطب ، وقالت :

« أيمكن ان يعيش هؤلاء الأخسّة ثمانية عشر شهراً أخرى في فنائنا ؟ ذلك شيء فظيع ! ذلك شيء فظيع ! »

وما اكثر الاساءات التي لقيناها من الفلاحين ! ما اكثر ما اوقعوا في نفسينا الخيبة خلال ايام الربيع الاولى التي تقنا فيها اشد التوق الى السعادة ! لقد شيدت زوجتي مدرسة . ووضعت انا خطة لمدرسة تتسع لستين طالباً . وأقـــرّ « مجلس زيمستفو » تلك الخطة ، ولكنه نصحنا بأن نبني المدرسة في كوريلوفكا ، القرية الكبيرة التي لا تبعد عنا اكثر من ميلين . وفوق ذلك فان مدرسة كوريلوفكا التي كان يتعلم فيها اطفال اربع قرى — دوبتشنيا واحدة منها — كانت عتيقة ، وصغيرة جداً ، وكان من غير المأمون الا نادراً السير على ارض غرفها . وفي نهـــاية آذار عيّنت ماشا ، نزولاً عند رغبتها ، وصيةً على مدرسة كوريلوفكا . وفي مطلع نيسان دعونا اهل القرية ثلاث مرات ، وحاولنا ان نقنع الفلاحين بأن مدرستهم عتيقة مزدحمة بالطلاب ، وان من الضروري إنشاء مدرسة جديدة . واقبل احـــد اعضاء « مجلس زيمستفو » ومفتش مدارس الفلاحين ، وحاولا هما ايضاً اقناعهم .

وعقب كل اجتماع كان الفلاحون يطوّقوننا ويلتمسون منا ان نعطيهم دلواً من الفودكا . وغلبت علينا الحدّة ، وخارت قوانا وشيكاً ، فعدنا الى البيت خائبي الأمل ، متبرمين بعض الشيء . وأخيراً أفرد الفلاحون قطعة من الارض للمدرسة ، واضطروا الى ان ينقلوا جميع مواد البناء كلها من البلدة ، على صهوات خيلهم . وفي يوم الاحد الاول الذي تلا بَذْر حنطة الربيع انطلقت العربات من كوريلوفكا ودوبتشنيا بحثاً عن الآجر الذي سوف يُصطنع في وضع الاساس . لقد انطلقت مع الضحى ، ثم رجعت في ساعة متأخرة من الليل . كان الفلاحون سكرى ، ولقد قالوا إن قواهم وهنت وخارت .

وتواصل المطر والبرد ، على ما يشتهي سوء الطالع ، طوال شهر نوار . كانت الطريق في حالة مروّعة ، فهي غرقى بالوحل والطين . وكان من عادة العربات ان تتقدم نحو فنائنا عند عودتها من البلدة – وما كان افظعها محنةً واشدّه بلاءً ! كان جواد بدينٌ يبرز لدى الباب ، مباعداً ما بين قائمتيه الاماميتين ، وكان يتعثر قبل ان يبلغ الفِناء ، وكان جذع من الخشب يبلغ طوله تسع ياردات يزحف مبللاً لزجاً على متن عربة نقل . والى جانبه كان فلاح مرتدٍ وقاءً من المطر يوسع الخطى ، وقد حُشِر طرف سترته في حزامه ، مخوّضاً في بركِ الوحل على غير هدى وتبرز عربة اخرى مثقلة بالالواح الخشبية ، وثالثة تقلّ جذعاً ضخماً ، ورابعة ... وشيئاً بعد شيء غصت الفسحة القائمة امام منزلنا بالخيل والجذوع والدعائم . وكان الرجال والنساء، اللابسون

أوقية" من المطر المقحمون اطراف ستراتهم في احزمتهم ،يحدقون مغضبين الى نوافذنا ، مطلقين صيحات مدوية ، طالبين ان تخرج السيدة اليهم . ووقعت في آذاننا مجموعة من الشتائم الخشنة . وفي الوقت نفسه ، وقف مويزي جانباً. ولقد تراءى لنا وكأنه مبتهج بما اصابنا من كرب .

وكان الفلاحون يصيحون :

« لن ننقل شيئاً بعد اليوم . لقد تهرأت قوانا . لتذهب هي وتجلب المواد بنفسها . »

ويعصف الشحوب والاضطراب بماشا ، وتتوقع ان ينقضّ الفلاحون بين دقيقة واخرى على المنزل ، فتبعث اليهم بنصف دلو من الفودكا . وعندئذ تخفت الضجة ، وتزحف الجذوع الطوال ، واحداً إثر واحد ، الى خارج الفِناء .

وحين كنت على وشك الانطلاق ، ذات يوم ، لالقاء نظرة على البناء عصف القلق بزوجتي وقالت لي :

« الفلاحون حقودون . وكل ما ارجوه ان لا يتعرضوا لك بأذى . إنتظر قليلاً ، سوف اذهب معك . »

وركبنا العربة الى كوريلوفكا ، وهناك سألنا النجارون شيئاً من شراب . كان كل شيء جاهزاً ، وكان الوقت قد حان لوضع الاساس . ولكن البنّائين لم يأتوا . وتأخّر العمل بسبب من ذلك ، وتذمر النجارون . حتى اذا جاء البناءون آخرَ الامر تبين لنا ان ليس ثمة رمل . فقد غفلنا بطريقةٍ ما عن حاجة البناء اليه . وافاد الفلاحون من وضعنا اليائس ، فطلبوا ثلاثين هوبيكاً ثمناً

لحمل كل عربة من الرمل على الرغم من ان المسافة من البناية الى النهر ، حيث كان الفلاحون يقصدون التماساً لتلك الاحمال تقلّ عن ربع ميل ، وكنّا في حاجة الى اكثر من خمسمئة عربة مثقلة بالرمل . ولم يكن ثمة نهاية للخلاف ، والسباب ، والالحـــاح . وغضبت زوجتي . فما كان من كبير البنائين ، تيت بيتروف ، وهو عجوز في السبعين ، إلا أن امسك بذراعها وقال :

« أنظري هنا ! أنظري هنا ! يكفي ان تأتيني انت بالرمل ، وعندئذ احشد انا عشرة رجال للعمل في الحال ، ثم ينتهي كل شيء في يومين ليس غير ! أنظري هنا ! »

وجيء بالرمل ، وانقضى يومان ، ثم اربعة ، ثم اسبوع ، وبدلاً من الاسس الموعودة كان ثمة حفرة تتثاءب .

وقالت زوجتي في توجع :

« هذا كافٍ لأخراج المرء عن طوره ، أيّ شعب هـــذا؟ أيّ شعب ؟ »

وفي غمرة من هذه الفوضى اقبل المهندس . كان يحمل معه رزماً تنطوي على خمر ومشهّيات . وبعد غداء متطاول ، اضطجع على الشرفة واستسلم لقيلولة ثقيلة ، غطّ فيها غطيطاً عالياً الى درجة جعلت العمال يهزون رؤوسهم ويقولون :

« شيء جميل ! »

ولم ترتح ماشا لقدومه . كانت لا تثق به ، على الرغم من أنها كانت في الوقت نفسه تسأله الرأي والنصيحة . حتى اذا افاق من سباته الطويل ، حرجَ الصدر نكد المزاج ، وراح ينتقـد إدارتنا

للمكان ، ويعبر عن ندمه لشراء دوبتشنيا التي عادت عليه منذ زمن بالخسارة ، طفت على وجه ماشا المسكينة انطباعة من البؤس والشقاء . كانت تتشكى له ، فيتثاءب ويقول ان الفلاحين ينبغي ان يُجلدوا بالسياط .

ووصف زواجنا وحياتنا فقال إنها مهزلة ، ووسواس ، ووهم. وقال عن ماشا :

« لقد عملتُ شيئاً مثل هذا من قبل . تخيلت نفسها مغنية عظيمة من مغنيات الأوبرا وفارقتني . وبقيتُ أبحث عنها طوال شهرين ، وانفقت أيها العزيز ألف روبل على ارسال البرقيات ليس غير . »

ولم يعد يسميني منشقاً او يناديني يا حضرة الدهان . وكفّ عن ابداء موافقته على اصطناعي حياة العمال ، شأنه في السابق ، بل صار يقول :

« انت شخصٌ غريب ! أنت لستَ شخصاً سوياً ! أنا لا اجرؤ على ان أتنبأ ، ولكنك سوف تنتهي الى نهاية سيئة ! »

وخاصم النوم عيني ماشا ، فهي تجلس ابداً امام غرفة مهجعنا وتستسلم للتفكير . ولم يعد ثمة ضحك على العشاء ، أو انطباعات فاتنة . وران عليّ الاكتئاب ، حتى اذا أمطرت السماء بدت كل قطرة تسقط وكأنها تمزق فؤادي مثل رصاصة صغيرة ، واستشعرت أني مستعدٌ لان أركع امام ماشا واعتذر لها عن سوء الاحوال الجوية ، وكان يستولي عليّ شعور بالجريمة كلما احدث الفلاحون ضجةً في الفناء ، ايضاً . وطوال ساعات موصولة كنت اجلس

ساكناً في مكان ما من غير ان افكر بشيء سوى ماشا ، وايّ شخص رائع مدهش هي . لقد أحببتها حباً عارمـــاً ، وفُتنت بكل ما عملتْ ، وكل ما قالت . وكان لها ميلٌ الى الدراسة الهادئة فهي مولعة بالمطالعة والاغتراف من مناهل العلم ساعات بكاملها . وعلى الرغم من انّ معرفتها بالزراعة مستمدة برمتها من الكتب فقد أدهشتنا جميعاً بما كانت تعرف في هذا الميدان ، وكانت كل نصيحة تسديها ذات قيمة ، فلم نطّرح اياً منها او ننبذها . ثم ايّ نبل كان يسمو بروحها ، وأيّ ذوق ، وايّ لطف ، ذلك الذي لا تقع عليه إلا عند اصحاب الثقافة الحسنة .

وفي عيني هذه المرأة بذكائها العمليّ السليم ، بدت هذه الفوضى المحيطة بنا وتلك الهموم الصغيرة ، والهواجس الحقيرة التي كنـا اخذنا نعيش في خضمّها ، ضرباً من العذاب المرير . لقد رأيت ذلك ، ولم استطع ان انام في موهن من الليل . كان دماغي يعمل عـلى نحو محموم ، وكانت في حنجرتي غُصة . واندفعت الى الخارج غير عالم ماذا اصنع .

ثم إنني عدوت الى البلدة وحملت الى ماشا كتباً ، وصحفاً ، وضروباً من الحلوى ، وازهاراً . ومع ستيبان ، رحت اتصيد السمك ، مخوّضاً حتى عنقي — ساعات طوالاً — في المـاء البارد ، وتحت المطر ، لالتقط ضرباً من سمك الانقليس انوّع به طعامنا . ولم اجد اية غضاضة في ان اتضرع الى الفلاحين ان لا يحدثوا ضجة ما . كنت اسخو عليهم بالفودكا ، واقنعهم بعدم الاقدام على اي عمل مزعج ، وأعدهم ضروب المواعيد . وما اكثر الاعمـال البلهاء

الاخرى التي قمت بها !

وأخيراً انقطع المطر عن التهطال ، وجفت الارض . صار في استطاعة المرء ان ينهض في الساعة الرابعة صباحاً ، وان يخرج الى الحديقة ، حيث ينعم برؤية الندى يومض على الازهار ، وبتغريد الاطيار ، ومشهد السماء الصافية التي لا سحاب فيها على الاطلاق. كانت الحديقة ،والمروج ، والنهر في غاية الروعة والجمال ، ومع ذلك فقد كان ثمة ذكريات عن الفلاحين ، وعن عرباتهم ، وعن المهندس . وانطلقت انا وماشا في مركبة السباق الى الحقول لنلقي نظرة على الشوفان . وكانت هي تسوق المركبة ، وكنت انا اجلس وراءها . كانت كتفاها مرتفعتين ، وكانت الريح تعبث بشعرها .

«إلزم اليمين !» كذلك كانت تصيح لمن تلقاه في بعض الطريق .

وقلت لها ذات يوم :

« انت اشبه بسائق عربة من عربات التزلج . »

— « جائز ! وعلى اية حال ، فقد كان جدي ، ابو المهندس ، سائق مزلجة . الم تكن تعرف ذلك ؟ »

طرحت عليّ هذا السؤال ، والتفتت اليّ ، ثم راحت تقلد طريقة سائقي المزالج في الصياح والغناء .

وقلتُ في ذات نفسي وانا أستمع اليها :

« وأشكر الله على ذلك ! أشكر الله ! »

وراودتني من جديد ذكريات الفلاحين ، والعربات ، والمهندس .

١٣

واقبل الدكتور بلاغوفو ممتطياً دراجته. واخذت اختي تختلف الينا. وكرة ثانية دارت الاحاديث حول العمل اليدوي، والتقدم، والعصر الالفي الغامض الذي سيملك فيه المسيح والذي ينتظر الجنس البشري في المستقبل البعيد. ولم يحب الدكتور عملنا في الحقل لانه كان يحول بيننا وبين الجدال، وكان يقول ان الحراثة والحصاد وتربية العجول ليست جديرة بالرجل الحر، وان جميع هذه الاشكال الخشنة من الصراع في سبيل البقاء سوف يتخلى عنها البشر، في يومٍ ما، للحيوانات والماكينات، لينصرفوا بكليتهم الى البحث العلمي. وكانت اختي تتوسل الينا ان ندعها ترجع الى البيت في ساعة مبكرة. حتى اذا مكثت حتى ساعة متأخرة، او قضت الليلة عندنا، نشب اهتياج لا نهاية له.

وقالت ماشا تؤنبها ذات مرة:

« يا للعجب، اي طفلة صغيرة انتِ! ذلك سخفٌ خالص. »

فأقرتها اختي قائلة:

« اجل، ذلك سخف. انا ادري انه سخف، ولكن ماالذي ينبغي ان يُعمل اذا لم تكن لي القوة على التغلب عليه؟ أنا احس دائماً وكأنما ارتكبت إثماً. »

حتى اذا آن موعد تجفيف العشب لعلف الدواب برحت بي الاوجاع بسبب من العمل المرهق الذي لم اتعوده. وفي المساء، فيما انا جالس على الشرفة اتحدث الى الآخرين، كان النعاس يغلبني فأستسلم فجأة للرقاد، فيضحك الجمعُ مني ضحكاً مدوياً. ثم انهم

كانوا يوقظونني ويدعونني الى تناول العشاء . واذ كان النعاس ملء اجفاني، فقد كنت ارى الاضواء، والصحون ، والاطباق وكأنها في حلم ، وأسمع الاصوات ولكني لا افهمها. وعند انبلاج الصبح كنت اهرع الى حمل المنجل ، واشخص الى البنـــاية واكدح طوال النهار .

وخلال مقامي في المنزل ، ايام العطل والاعياد ، لاحظت ان اختي وماشا تخفيان شيئاً عني ،بل لقد بدتا وكأنهما تجتنبانني. كانت زوجتي رقيقة معي ، شأنها من قبل ، ولكن كانت لهـا آراء لا تشركني بها . فلم يكن ثمة شك في ان غيظها مـــن الفلاحين كان آخذاً في التعاظم ، وان الحياة كانت قد غدت بغيضة الى نفسها اكثر فأكثر ، ومع ذلك فلم تتشكّ اليّ . صارت تتحدث الى الدكتور بحرية اكثر من تلك التي تصطنعها في الحديث معي ، ولم استطع ان افهم لذلك سبباً .

كانت العادة في مقاطعتنا تقضي بأن يفد الفلاحون ، ايام تجفيف العشب والحصاد ، الى البيت الاقطاعي ، بعد ان يهبط الليل ، لكي ينعموا بالفودكا . وحتى الفتيات اليافعات كن يحتسين كأساً . ولم نلتزم نحن عمود هذه العادة . فكان الحاصدون والفلاحـــات يطوّفون في فنائنا حتى ساعة متأخرة من الليل انتظاراً للفودكا ، ثم ينفضون من هناك وهم يذموننا ويعيرونا . وطوال الوقت ، كانت ماشا تقطب جبينها ولا تقول شيئاً ، او تغمغم قائـــلة للدكتور ، في غيظ متميز :

« وحوش ! وحوش ! »

وفي الريف ، يُستقبل الوافدون الجدد في غير تلطف ، بل بعداء تقريباً ، كما يستقبلون في المدرسة . ولقد استقبلنا على هذا النحو . ففي باديء الأمر نظر القوم الينا نظرتهم الى اناس بلهاء حمقى اشتروا اقطاعة لمجرد انهم لم يعرفوا ما الذي ينبغي ان يفعلوه بالمال الذي يملكون . لقد هزئوا بنا وضحكوا علينا . وكان الفلاحون يرعون ماشيتهم في حرجنا ، بل في حديقتنا . كانوا يطردون ابقارنا وخيلنا الى القرية ، ثم يطالبون بالتعويض المالي عن الاضرار التي انزلتها بهم . وكانوا يفدون زرافات زرافات على فناء دارنا ويصيحون اننا اقتطعنا ، عند الحصاد ، جانباً من الارض لا نملكه . وإذ كنا لمّا نعرف بعد تخوم اقطاعتنا على وجه الدقة ، فقد نزعنا الى تصديقهم وعوضنا عليهم الخسارة . ثم اتضح بعد ذلك انه لم يكن ثمة ايما خطأ ارتكب عند الحصاد . ليس هذا فحسب ، بل كانوا ينزعون لحاء شجرات الزيزفون في غابتنا . ولقد اقدم احد فلاحي دوبتشنيا ، وكان محتالاً يتاجر بالفودكا من غير اجازة ، على رشوة عمالنا ، فهو يخدعنا بالتعاون معهم خداعاً ليس أغدر منه ولا امعن في الخيانة . لقد نزعوا العجلات الجديدة من عرباتنا ووضعوا مكانها عجلات قديمة ، وسرقوا ادواتنا الخاصة بالحراثة ثم باعونا اياها ، وهكذا . ولكن الذي حزّ في نفوسنا اكثر ما يكون تلك الاحداث التي وقعت في البناية . كانت نساء الفلاحين يسرقن تحت جنح الظلام الالواح الخشبية ، والآجرّ ، والقرميد ، وقطع الحديد . وقام شيخ القرية ، يصحبه بعض الشهود ، بتفتيش اكواخهن . وغرّم مجلس القرية

كلاً منهنّ روبلين ، وفي ما بعد أنفق هـذا المال على مقادير من الشراب احتستها الجماعة كلها .

وكانت ماشا ، اذا ما سمعت شيئاً من مثل ذلـــك ، تقول للطبيب أو لأختي ، في اشمئزاز :

« يالهم من بهائم ! إنه شيء فظيع ! شيء فظيع ! »

وسمعتُها غير مرة تعبّر على ندمها على انها فكرت ذات يوم بأنشاء المدرسة .

وحاول الطبيب ان يقنعها بقوله :

« يجب أن تفهمي انك اذا بنيت هذه المدرسة وعملت عملاً صالحاً على العموم ، فليس ذلك من اجل الفلاحين ، ولكن باسم الثقافة ، باسم المستقبل . وكلما كان الفلاحـــون أسوأ ، تعاظمت الحاجة الى انشاء المدرسة . افهمي هذا ! »

ولكن كان ثمّة ، في صوته ،عدم اقتناع . ولقد بدا لي أنه هو وماشا يكرهان الفلاحين .

وكانت ماشا كثيراً ما تذهب الى الطاحونة ، برفقـة أختي ، وكانتا كلتاهما تقولان ، ضاحكتين ، إنهما ذهبتا لرؤية ستيبان ، فهو ظريف جداً . وكان ستيبان ، في ما يبدو ، كسولاً صموتاً مع الرجال فقط . اما في حضرة النساء فكان ينطلـق ويتحرر ، وكان يتكلم على نحوٍ موصول . وذات يوم ، فيما كنت قاصداً الى النهر لأبترد ، وقع في أذني ، مصادفةً ، حـديث كان دائراً بين ماشا وكليوباترة . كانتا ترتديان ملابس بيضاء ، وتجلسان عند ضفة النهر ، تحت ظلٍ وارف من شجرة صفصاف . وكان ستيبان

واقفاً الى جانبها ، ويداه خلف ظهره ، وكان يقول :

« هل الفلاحـــون بشر ؟ إنهم ليسوا بشراً ، ولكنهم – أستميحكما العذر – بهائم وحشية ، ومحتالون مخادعون . ما هي حياة الفلاح ؟ لا شيء ، غـــير الأكل والشرب . كل مـا يهمه هو ان تصبح المواد الغذائية أرخص ، وان يكرع الخمر في الحانة ، كالمجنون . ولكن ليس عنده حديث ، ولا ادب ، ولا نظام . ليس عنده شيء غير الجهل ! انه يحيا في القذر ، واولاده يحيون في القذر . إن ما يرتديه حين يكون واقفاً ، هو ما يضطجع وينام فيه . إنه يلتقط البطاطس بأصابعـه من الحساء . ويشرب الـ « كفاس » وقد سبحت فيها الصراصير ، ولا يجشم نفسه عناء طردها . »

وقاطعته اختي قائلة :

« كل ذلك بسبب الفقر ، طبعاً . »

– « الفقر ؟ هناك حاجة ، من غـــير شك ؛ هناك ضروب مختلفة من الحاجة ، ياسيدتي . اذا كان رجلٌ سجيناً ، او فلنقـل أعمى ، او كسيحاً ، فذلك حقاً بلاء لست أتمناه لأحد . ولكن اذا كان المرء حراً مالكاً حواسه كلها ، اذا كانت له عيناه ويداه وقوته وربّه ، فأيّ شيء يريد اكثر من ذلك ؟ إنه تدليلهـــم لأنفسهم ، إنه الجهل ، يا سيدتي ، لا الفقر . ولنفرض انكم انتم جماعة النبلاء الطيبين ، أحببتم بما لكم من ثقافة ، وبدافـــع من العطف وكرم النفس ، أن تمدوا يد المساعدة اليه فعندئذ يبدّد مالكم بطريقته الوضيعة ، ولعله ان ينشيء – وهذا اسوأ – خمارةً ،

ويأخذ في سرقة الناس مستعيناً على ذلك بأموالكم . أنت تقولين الفقر ، ولكن أيعيش الفلاح الغني حياةً افضل ؟ ثم انـــه — استميحكما العذر — يحيا كالخنزير ساذجاً ، جافياً ، كثير الكـلام ، صخاباً ، يابسَ الرأس ، بديناً ، أحمر الوجنتين ، أودّ لو اصفعـه بجمع كفي فأقذف به — هو الوغد — الى مكان بعيـد . وهناك لاربون ، وهو غنيّ آخر في دوبتشنيا ، وأنا اراهن انـــه ينزع اللحاء عن اشجاركم بقـــدر ما يفعل ايما رجل فقير . وهو رجل بذيء . وكذلك أولاده . وحين يحتسي قطرةً واحدة فوق ما ينبغي له يخرّ في بركة من برك الوحل ويستسلم للرقاد . إنهم جميعاً زمرة لا غناء فيها ، ياسيدتي . واذا ما عشتِ معهم في قرية كان ذلك اشبه بالعيش في جهنم . اني اشكر الرب ، ملك السماء ، على ان عندي فوق حاجتي من الطعام والثياب . ولقـد خدمتُ في سلاح الفرسان ، ثم عملتُ شيخ قرية طوال ثلاث سنوات ، وها أنا ذا الآن قوزاقيّ حرّ ، احيا حيث أحبّ . ولكني لا اريـد ان احيا في القرية ، وليس لأحد الحق في اكراهي على ذلـك . يقولون زوجتي . ويقولون انك ملزم بأن تعيش في كوخك مع زوجتك . ولكنْ لمَ ذاك ؟ انا لست أجيرها . »

وسألته ماشا :

« قل لي ياستيبان ، هل تزوجتَ التماساً للحبّ ؟ »

فأجاب ستيبان ، وارسل ضحكةً :

« الحب بيننا في القرية ! الواقع يا سيدتي — ولست ادري ما اذا كان يهمك أن تعرفي ذلك — أن امرأتي الحاليـــة هي زوجي

الثانية . أنا لست من أبناء كوريلوفكا . أنا من زاليغوشتشو ، ولكني قدمتُ الى كوريلوفكا عندما تزوجت . ذلك أن أبي رفض ان يقسّم الارض في ما بيننا . وكنا خمسةَ إخوة . ففادرت مسقط رأسي ، وقصدتُ الى قرية اخرى لاعيش مع اسرة زوجتي ، ولكن زوجتي الاولى توفيت وهي في ميعة الصبا . »

— « ممّ توفيت ؟ »

— « من الحمق . كان من عادتها ان تبكي وتبكي وتبكي لغير ما سبب ، وهكذا هزلت وذبلت . كانت تشرب دائماً نقيع بعض الاعشاب لتصبح املح وجهاً . وأنا احسب انها اتلفت باطنها . وزوجتي الثانية هي امرأة من كوريلوفكا ايضاً ، وليس فيها شيء خاص . إنها امرأة قروية ، امرأة فلاحة ، لا اكثر . ولقد خُدعتُ حين عقدوا خطبتي عليها . ذلك أنني ظننتها نضرة العود ، ناصعة البشرة ، وحسبت انهم يعيشون على نحوٍ نظيف . كانت امها مثل امرأة من الجالدة * ، تماماً ، وكانت تشرب القهوة . والشيء الاساسي من غير ريب انهم كانوا شديدي النظافة . وهكذا تزوجتها . وفي اليوم التالي جلسنا لنتناول طعام الغداء . فسألتُ حماتي ان تعطيني ملعقةً ، فما كان منها إلا ان تناولت احدى الملاعق ومسحتها بأصبعها . فقلت لنفسي : هذا يكفيك . هذا ضربٌ جميل من النظافة . وعشتُ معهم سنة ، ثم مضيت لسبيلي . لقد كان في ميسوري ان اتزوج فتاة من البلدة . . . »

---

* الجالدة فرقة دينية إيطالية متعصبة كانت تسير في الشوارع عارية وتجلد اكتافها بالسياط . [المعرب]

وصمت لحظة ثم اردف :

« يقولون إن الزوجة رفيقٌ معينٌ لبعلها . وما حاجتي الى رفيق معاون ؟ انا اعين نفسي . انا افضّل ان تتحدث اليّ ، لا ان تثرثر وتثرثر وتثرثر ، ولكن في إسهاب ومن صميم الفؤاد . وما قيمة الحياة من غير حديث عذب ؟ »

وفجأة كفّ ستيبان عن الكلام ، وسمعتُ بعد ذلك مباشرة صوته الحزين الرتيب وهو يردّد « اوو — لوو — لوو — لوو » . وكان معنى ذلك انه قد رآني .

وكانت ماشا كثيراً ما تشخص الى الطاحونة واجدةً ، من غير شك ، متعةً في احاديثها مع ستيبان . فقد كان ستيبان يشتم الفلاحين في صدق واتقاد ، فهي تجد في ذلك ما يجذبها اليه . وكانت كلما عادت من الطاحونة صاح الفلاح المعتوه ، الذي يُعنى بالحديقة ، في وجهها :

« بالاشكا الساقطة ! هالو ، بالاشكا الساقطة ! »

ثم ينبح كما ينبح الكلب :

« غا ! غا ! »

وكانت تقف وتصيخ اليه في اهتمام وكأنها تجد في نباح ذلك المعتوه جواباً عن افكارها ، ولعلّه كان يجذبها بالطريقة نفسها التي جذبها بها سباب ستيبان . وفي البيت ، كان نبأ ينتظرها . نبأ يقول إن الاوز الوافد من القرية قد اتلف الكرنب في حديقتنا ، حيناً . او يقول إن لاربون قد سرق اعنّة الخيل . فما تكاد تطّلع على ذلك حتى تهز كتفيها وتقول ضاحكةً :

« ما الذي تنتظرينه من هؤلاء الناس ؟ »

وعصف بها السخط ، وامتلأ قلبها بالحقد . وكنتُ قد ألِفْتُ في الوقت نفسه ، جماعة الفلاحين ، واستشعرت انني منجذبٌ نحوهم اكثر فأكثر . كانوا في اكثر الاحوال قوماً عصبيين جداً ، سريعي التهيج ، مدوسين بالاقدام . كانوا قوماً أُطفيء خيالهم ، قوماً جاهلين ينظرون الى الحياة نظرةً رديئة قذرة ، ولا تتعدى افكارهم اشياء بعينها : الأرض الرمادية ، والايام القاتمة ، والخبز الاسود ، والمخادعين من الناس . ولكنهم كانوا كالطير لا يخبّئون غير رؤوسهم خلف الشجرة — قوماً لا يحسنون العدّ والحساب . فهم لا يفدون علينا لكي يحصدوا القمح مقابل عشرين روبلاً ، ولكنْ يفدون التماساً لنصف دلو من الفودكا ، على الرغم من أن الروبلات العشرين خليقة بأن تشتري لهم اربعة دلاء . كان ثمة قذارة ، وسُكْر ، وبلاهة ، وخداع ، من غير شك . ولكنْ الى جانب ذلك كان المرء يحسّ أن حياة الفلاحين قائمة على اساس ثابت سليم . فمهما بدا الفلاح خلف محراثه حيواناً فظاً غليظاً ، ومهما يخبّل نفسه بالفودكا ، يظلّ المرء ، اذا ما نظر اليه من كثب ، يستشعر أن فيه ما نحن في حاجة اليه ، شيئاً هاماً جداً يُعوز ماشا والطبيب ، مثلاً ، وهو ايمانه بأن الأمر الاساسي على ظهر هذه الارض ليس غير الحقيقة والعدل . وان خلاصه وخلاص الشعب كله لن يكون إلا بالحقيقة والعدل . ومن هنا احبّ المعاملة العادلة اكثر من ايّ شيء آخر في العالم . ولقد قلتُ لزوجتي يوماً انها ترى البُقَع التي على المرآة ، لا المرآة نفسها . فلم تحر جواباً ، او

لعلها غمغمت مثل ستيبان « اوو – لوو – لوو – لوو » . والحق اني كنت اتحير كلما رأيت هذه المرأة البارعة الطيبة القلب شاحبة الوجه بالسخط والغيظ ،وأذهل لضعف ذاكرتها كلما سمعتها تحدث الطبيب في صوت مرتعش عن السُكْر وقلة الامانة . كيف استطاعت ان تنسى ان اباها المهندس يشرب الخمرة ايضاً ويسرف في الشراب ، وان المال الذي اشتريت به دوبتشنيا إنما جُمع بسلسلة كاملة من المخادعات الوقحة الخليعة العذار ؟ كيف استطاعت ان تنسى ذلك ؟

١٤

وكانت أختي أيضاً تحيا حياةً خاصةً عنيت بأن تحجبها عن ناظري . كانت كثيراً ما تتهامس مع ماشا . وكانت حين تراني مقبلاً نحوها تنكمش على نفسها ، وتطفو على عينيها سيما مذنبة متوسلة . كان واضحاً ان شيئاً تخشاه او تستحي به كان يعتلج في قلبها . ولكي تجتنب الاجتماع اليّ في الحديقة ، او البقاء وحدها معي ، كانت لا تبتعد عن ماشا البتة ، ومن هنا كنت نادراً ما اجد فرصة للكلام معها إلا على المائدة .

وذات مساء كنت أمشي وئيداً خلال الجنينة في طريق عودتي من البناية . كان الليل قد آذن بالهبوط ، ومن غير أن تلمحني ، او تسمع وقع قدميّ ، كانت تتمشى قرب شجرة تفاح عتيقة وارفة الظلال ، غيرَ محدثة صوتاً ما على الاطلاق ، وكأنها هي شبح من الاشباح . كانت ترتدي ثوباً اسود ، وكانت تذرع المجاز نفسه جيئة وذهوباً ، في خفة وسرعة ، وعيناها

مسمرتان على الارض . وسقطت تفاحة من الشجرة . فاجفلت من صوتها ، وجمدت في مكانها ، ضاغطةً بكفيها على الصدغين . وفي تلك اللحظة بالذات تقدمتُ نحوها .

وفي دفقة من العاطفة الرقيقة التي استغرقت قلبي فجاءةً ، وملأت عينيّ بالدمع ، وأذكرتني والدتي وصبانا ، رأيتني أطوّق كتفيها بذراعيّ ، واقبّلها .

وسألتها :

« ماذا دهاك ؟ انت غير سعيدة . لقد لاحظتُ ذلك منذ زمن طويل . قولي لي ممّ تشكين ؟ »

فقالت وهي ترتعد :

« انا خائفة ! »

فألححتُ في السؤال :

« ممّ أنت خائفة ؟ بحقّ الله ، كوني صريحةً معي ! »

— « سوف افعل . سوف أصارحك . سوف اقول لك الحقيقة كلها . إن اخفاءها عنك عسير جداً ، موجع جداً . ميسيل ، أنا أحبّ ... »

وصمتت لحظة ثم تابعت في همس :

« أنا أحبه ... أنا أحبه ... إني سعيدة ، ولكن لماذا انا خائفة على هذا الشكل ؟ »

وسمعنا وقع أقدام . ومن بين الاشجار برز الدكتور بلاغوفو في قميصه الحريري ، وحذائه الطويل الساق . كان واضحاً أنهما تواعدا على اللقاء قرب شجرة التفاح ، فما إن رأته حتى اندفعت

نحوه مطلقة صيحة ألم ، وكأنما سُلب منها :

« فلاديمير ! فلاديمير ! »

وتعلقتْ به وحدّقتْ الى وجهه في نهم ، وعندئذ فقط لاحظتْ مقدار الهزال والشحوب اللذين اصاباها في الفترة الأخيرة. وكان ذلك جلياً اكثر ما يكون في قبتها المخرمة التي عرفتها من عهد بعيد ، والتي تدلت الآن متهدلةً ، على نحوٍ لم تبلغه من قبل ، حول عنقها النحيل الطويل . واضطرب الدكتور بعض الشيء ، ولكنه ما لبث أن تماسك وقال وهو يربت على شعرها :

« كفى ، كفى . . . لمَ هذه العصبية كلها ؟ ها أنا ذا هنا ، بين يديك . »

وكنا صامتين ، نتبادل النظرات في ارتباك . ثم إننا مشينا ثلاثتنا معاً ، وسمعتُ الطبيب يقول لي :

« الحياة المتمدنة لم تبدأ عندنا بعد . إن الرجال العجائز يعزون أنفسهم بالقول : اذا لم يكن ثمة شيء الآن ، فقد كان شيء ما في العقد الرابع او العقد السادس من هذا القرن . هؤلاء هم العجائز . اما انت وانا فلا نزال شابين . إن دماغينا لم يتأثرا بعد بـ « هزال الشيخوخة . » ونحن لا نستطيع ان نتسلى بمثل هذه الأوهام . لقد بدأت الروسيا عام ٨٦٢ ، ولكن بداءة الروسيا المتمدنة لمّا تحن بعد . »

ولكني لم أحط بمعنى هذه التأملات . وكان عجيباً بعض الشيء ان اعجز عن تصديق ما تراه عيناي : ان اختي عاشقة ، وانها تمشي ممسكةً بذراع رجل غريب ، رامقة إياه بنظرات ترشح رقة

ووداً . وان اختي ، هذه المخلوقة العصبية ، المروّعة ، المحروقة الفؤاد ، المصفدة بالاغلال ، تحبّ رجلاً متزوجاً وله اولاد ! لقد استشعرت الأسف لشيء ما، ولكنّ ايّ شيء ذاك؟ لست ادري على وجه الضبط . وغدا وجود الطبيب بغيضاً اليّ ، لسبب ما ، منذ اليوم ، ولم استطع ان أتخيل إلام سوف يؤول حبّهما هذا.

١٥

وامتطيت انا وماشا العربة في طريقنا الى كوريلوفكا لنحتفل بتدشين المدرسة .

وقالت ماشا في نعومة ، وهي تنظر الى بعيد :

« الخريف ، الخريف، الخريف . لقد انقضت شهور الصيف . ليس ثمة طيور ، وليس ثمة ما هو اخضر غير الصفصاف . »

اجل ، لقد انقضت شهور الصيف . كانت الايام صاحية حارة ولكن الجو كان رطباً في الصباح ، وكان الرعاة قد شرعوا يلبسون ستراتهم المصنوعة من جلود الاغنام . وفي حديقتنا لم يكن الندى ليجفّ عن النبات النجيمي طوال النهار . وكانت تسمع ، على غير انقطاع ، اصوات كئيبة ، ولم يكن في ميسور المرء ان يتحقق ما اذا كانت تنطلق من مصاريع النوافذ التي تصِرّ على مفاصلها الصدئة ، أم من الكراكيّ الطائرة . وكانت السعادة تعمر فؤاد المرء ، فهو مشوق الى الحياة .

وقالت ماشا :

« لقد انقضى الصيف . وفي استطاعتنا ، انا وانت ، ان نعمل

الآن حسابنا . لقد قمنا بكثير من العمل ، وبكثير من التفكير . ولكننا جنينا وحدنا فائدة ذلك. لقد وفقنا الى ان نحسّن ذاتينا ، ولكن هل كان لنجاحنا هذا اي اثر ملحوظ في الحياة من حولنا؟ هل عاد بنفع ما على امريء كائناً من كان ؟ لا . فالجهالة، والقذارة الجسمانية ، ومعاقرة الخمر ، والارتفاع المخيف في نسبة وفيات الاطفال ، كل اولئك وغيره لا يزال كما كان ، ولم يطرأ ايما تحسن على انسان ما نتيجة لانصرافك الى الحراثة والبذر ولقراءتي الكتب واتلافي المال. وواضح اننا كنا نعمل من اجل انفسنا ، ليس غير ، وان افكارنا التقدمية لم تعد بالفائدة على احد سوانا . »

وأربكني هذا المنطق ، ولم اعرف بأيّ شيء أفكر .

ثم انني قلت :

« لقد كنا مخلصين منذ البدء حتى النهاية ، وحين يخلص المرء فعندئذ يكون على صواب . »

- « ومن يجادل في ذلك ؟ ولكننا لم نوفق الى ان نحقق على وجه حسن ما كنا مصيبين فيه. ولنبدأ في النظر الى طرائقنا الخارجية نفسها — أليست هي اساليب مغلوطة ؟ انت تريد ان تكون ذا فائدة للناس ، ولكنك بمجرد شرائك اقطاعة من الاقطاعات ، حرمت نفسك منذ البدء إمكانية القيام بأيما عمل مفيد لهم . حتى اذا اشتغلتَ ولبست واكلت كما يشتغل الفلاحون ويلبسون ويأكلون كرّست ، بما لك من سلطة ، ثيابهم الثقيلة الخرقاء ، وأكواخهم المرعبة ، ولحاهم البلهاء . . ومن ناحية ثانية ،

لنفرض أنك عملتَ سنوات طويلة ،طويلة جداً ، استغرقت عمرك كله ، وانك حققت آخر الامر بعض النتائج العملية ، فأيّ شيء تستطيع ان تعمله نتائجك تلك ضد الجهل والجوع والبرد والتفسّخ وغيرها من القوى الطبيعية الجبارة ؟ستكون نقطة في محيط ! نحن في حاجة الى وسائل كفاح اخرى ، وسائل اقوى ، واجرأ ، وأسرع ! واذا كان المرء راغباً حقاً في ان يفيد الناس فيتعين عليه ان يخرج من نطاق العمل الاجتماعي العادي الضيق ، وان يسعى الى ان يقوم بتجاربه على الجماهير مباشرة ! ان ما نحتاج اليه ، قبل كل شيء ، دعاية ناشطة مرفوعة الصوت . ما الذي يجعل الفن – الموسيقى مثلاً – على مثل هذه الحيوية والشعبية والقوة ؟ لأن الموسيقى او المغني يتلاعب بعواطف الآلاف دفعة واحدة . »

وصمتت لحظة ثم اردفت وهي ترنو الى السماء بنظرات حالمة :

« الفن ، الفن النقيس ! الفن يمنحنا اجنحةً ، ويحملنا الى بعيد ، بعيد جداً ! وكل من ترمضه القذارة والمصالح الحقيرة الشرهة ، وكل ثائر او مجروح او ساخط ،يستطيع ان يجد الأمن والارتياح في الجمال ، وفي الجمال وحده . »

وكان الجو ،حين انطلقنا الى كوريلوفكا ،مشرقاً بهيجاً . وكان الفلاحون يدرسون الحبوب في مكان ما ،وقد فاحت رائحة تبن الجودار . وكان النبات المعروف بوماد الجبل احمر زاهياً خلف الاسيجة المصنوعة من اغصان محبوكة ، وحيثما تلفتّ المرء كانت الاشجار إما ضاربة الى الحمرة وإما ذهبيـــة . وكان الفلاحون يقرعون الأجراس ، ويحملون الايقونات الى المدرسة ، وكان في ميسورنا ان نسمعهم

ينشدون « ايتها الام المقدّسة ، يا مجيرتنا ! » ولشدّ ما كان الهواء صافياً ، ولشدّ ما حلّقت الحمائم في السماء !

واقيم القداس في قاعة التدريس . ثم إن فلاحي مكوريلوفكا قدّموا الايقونة الى ماشا ، وقدّم فلاحو دوبتشنيا اليهـــا رغيفاً ضخماً ومملحةً موّهةً بالذهب . وانفجرت ماشا في نشيج طويل .

وقال رجلٌ عجوز وهو ينحني لها ولي :

« إذا كنا قد قلنا شيئاً لا ينبغي ان يُقـال ، او عملنا عملا لم ترتاحا اليه فاعذرانا ! »

وحين انقلبنا الى البيت لم تكفّ ماشا لحظةً عن التلفّت نحو المدرسة . وظلّ السطح الاخضر الذي دهنتُهُ أنا ، والذي كان يومض تحت وهج الشمس ، بادياً للعيان فترة طويلة من الزمان . وشعرتُ ان النظرة التي القتها ماشا عليه ، الآن ، كانت نظرة وداع

١٦

وعند المساء ، استعدت للذهاب الى البلدة . وكانت قد اعتادت ، في الايام الاخيرة ، ان تكثر من المضيّ الى البلدة والمبيت فيها . وفي غيابها ، لم يكن في مستطاعي ان اعمل . كنت احسّ ان يديّ ضعيفتان مترهلتان . وكان فناء دارنا الضخم يبدو في عينيّ ثقباً كئيباً منفّراً فارغاً . وكانت الحديقة حافـــلةً بالاصوات المغضبة . وبدونها لم يعد المنزل ، والاشجار ، والخيل « ملكنا » على الاطلاق .

وما كنت افارق المنزل ، بـــل امضي فاجلس الى طاولتها

قـــرب رفّ كتبها ، بعد ان غدت المصنفات في الموضوعات الزراعية ،تلك التي كانت اثيرة لديها في يوم مضى ، شيئاً لا حاجة لها به ، فهي تنظر اليّ الآن بوجوه يغشاها الخجل. وطوال ساعاتٍ موصولة ، فيما دقت الساعة السابعة ، فالثامنة ، فالتاسعـة ، وفيما كان الليل الخريفيّ يهبط في الخارج ، اسود كالسخام ، كنت اتأمل قفازها القديم ، او قـــلم الحبر الذي كان من دأبها ان تكتب به ، أو مقصها الصغـير . ولم اكن اعمـل شيئاً ، بعد ان ادركتُ في وضوح أنني لم اعمل كل ما عملته من قبل ، من حرث الارض وحصد للغلال وتشقيف للحطب ، إلاّ لأنها كانت هي راغبة في ذلك . ولو قد سألتني ان أنظف بئراً عميقة وكان ذلك يقتضيني ان أخوّض ، حتى خصري ، في الماء إذن لهرعت الى البئر من غير ان اتساءل ألهذا الصنيع ضرورة ام لا . والآن ، وقد حرمتني قربها ، بدت دوبتشنيا في عينيّ ، بخرائبها ، وقلة ترتيبها ونظافتها ، ومصاريع نوافذها المصفّقة ، ولصوص ليلها وسرّاق نهارها ، فوضى لا يجدي فيها اي عمل . والى هـذا ، فلأي شيء اعمل هنا ؟ وعلام القلق والتفكير في المستقبل اذا كنت اشعر ان الارض تميد تحت قدميّ ، وأني مثلت دوري في دوبتشنيـا ، وان المصير الذي آلت اليه الكتب الزراعية ينتظرني انا ايضاً ؟ أوه ، أيُّ شقاء كان يلفني في الليل ، خلال ساعات الوحدة ، حين اصيخ كل لحظة في قلق وذعر ، وكأنني أتوقع ان يصرخ أحدٌ قائلاً أنّ قد آن لي ان امضي لسبيلي ! ولم آسف على دوبتشنيا . وانما أسفتُ على حبي الذي كان هو ايضاً مهدداً بخريفـــه . ايّ

سعادة ضخمة ان يُحِبّ المرء وان يُحَبّ ، وما افظع ان يحسّ انه ينحدر من تلك القمة العالية !

وفي مساء اليوم التالي تقريباً رجعت ماشا من البلدة . كانت مستاءة من شيء ما ، ولكنها اخفت استياءها ، واكتفت بأن سألت لماذا رُكّبت أطُر النوافذ كلها استعداداً للشتاء ، فذلك جدير بأن يؤدي بالمرء الى الموت اختناقاً . ونزعتُ إطارين من تلك الأطر . ولم نكن نستشعر الجوع ، ومع ذلك فقد جلسنا لتناول طعام العشاء .

وقالت زوجتي :

« إذهب واغسل يديك . ان رائحة الملاط تفوح منك . »

وكانت قد حملت بعض الصحف الجديـــدة المصوّرة ، من البلدة ، فرحنا نتصفحها معاً بعد العشاء . وكانت لتلك الصحـف ملاحق خاصة بأحدث الازياء . ونظرت ماشا الى تلك الملاحـق نظرة خاطفة ، ووضعتها جانباً لتفرغ لدراستها في ما بعـــد . ولكن ثوباً واحداً ذا تنورة كالجرس كثيرة الثنايا ، وردتـين واسعين ، أعجبها فحدّقت اليه ، دقيقةً من زمان ، في كآبـــة واهتمام ، وقالت :

« هذا ليس رديئاً . »

فقلت :

« اجل ، هذا الثوب خليق بأن يلائمك على نحوٍ جميل — على نحوٍ جميل . »

ونظرت الى الثوب في انفعال ، معجَباً بتلك الرقعة الرمادية

لمجرد انها احبّتها ، واردفتُ في رقة :

« ثوب فاتن نفيس ! إنه رائع ، ماجـدٌ ، يا ماشا ! يا عزيزتي الغالية ! »

وانهمرت الدموع على صفحة الملحق الخاص ّبالازياء .

وتمتمتُ :

« يا ماشا الرائعة . . يا ماشا الحلوة ، الغالية ! »

ومضت الى سريرها ، فيما قعدتُ ساعة اخرى اتأمل الرسوم.

وقالت من مهجعها :

« ليتك لم تنزع أُطر النوافذ . يخيّـل اليّ ان الجو سيكون بارداً . اوه ، يا عزيزي ، ايّ تيار من الهواء هناك ! »

وقرأت شيئاً في عمود المحتويات ، ووصفـــة لعمـل الحبر الرخيص ، وحديثاً عن أضخم ماسة في العالم . وعدت من جديد الى الزي الذي نال اعجابها ، وتخيلتها في احدى حفلات الرقص ، عارية الكتفين ، لامعة ، رائعة ، وقد حملت في يدها مروحـة ، وتكشّفَتْ عـن فهم كامل للرسم والموسيقى والادب ، ولشدّ ما بدا دوري صغيراً موجزاً .

كان اجتماعنا ، وزواجنا ، مجرد مرحلة واحـدة سوف تعقبها مراحل كثيرة في حياة هذه المرأة النشيطة الموهوبة في سخاء. فقد كان خير ما في العالم ، كما ذكرت من قبل ، في خدمتها ، وكانت تحصـل عليه من غير مقابل على الاطـــلاق . وحتى الفكرات والحركات العقلية المحْدَثة كانت تساعدها على الترويح عن نفسها ، مدخلة عامل التنوّع الى حياتهـا ، ولم اكن انا غـــير سائق

المزلجة الذي يقودها من تسلية الى اخرى . والآن ، ما عادت لها حاجة اليّ . إنها قد تولي فراراً ، وقد أبقى انا وحيداً .

وانطلقت من الحديقة صيحة يائسة ، وكأنما هي جواب على ما كان يجول في خاطري :

« النجـ . . . ـدة ! »

كان صوتاً نسوياً جهورياً ، وكأنما ارادت الريح ان تقلده فصفرت بالمدخنة في ذلك الجرس الجهوري نفسه . وانقضت نصف دقيقة . ومن خلال عصف الرياح ايضاً ، ولكنْ من اقصى الفناء الآخر في ما يبدو ، انطلقت صيحة جديدة :

« النجـ . . . ـدة ! »

وسألتني زوجتي في رفق :

« ميسيل ، هل تسمع ؟ هل تسمع ؟ »

وخرجت بمنامتها من مهجعها الخاص ، وقد أرخي شعرها ، واصاخت ناظرةً الى النافذة المظلمة .

وقالت :

« لقد قُتِل شخصٌ ما . تلك هي القشة الأخـــيرة تصيب كأساً مترعة . »

وتناولتُ بندقيتي وانطلقت . كان الظلام دامساً في الخارج ، وكانت الريح عنيفة ، وكان من العسير عـــلى المرء ان يقف . ومضيت الى الباب الكبير ، واصغيت : كانت الاشجار تهدر ، والرياح تصفر ، وكان كلب يعوي في تكاسل ، عند كوخ الفلاح المعتوه في اغلب الظن . وكانت الظلمة مطلقة خارج الابواب ، ولم

يكن ثمة ضوء واحد على الخط الحديدي . وقربَ المنزل الصغير الذي اتخذ مكتباً قبل عام واحـــد رنّت – فجاءة – صيحة مكظومة :

« النجـ . . . ـدة ! »

فصحت :

« مَنْ هناك ؟ »

كان ثمة رجلان يصطرعان . وكان احدهما يدفـع الآخر الى امام ، في ما كان هذا يقاوم . وكان كل منهما يلهث لهاثاً شديداً.

وقال احدهما ، وهو إيفـان تشيبراكوف ، وكان هو صاحب الصوت الجهوري النسويّ :

« دعني اذهبْ . دعني اذهب ، ايها الوحش اللعـــين ، وإلا عضضت يدك فقطعتها . »

اما الثاني فكان موٍيزي . وفصلت ما بينهما. وفيما كنت افعل ذلك لم اتمالك ان اضرب مويزي ضربتين على الوجه . فخرّ على الارض ، ثم نهض من جديد ، فسدّدت اليه ضربة اخرى .

وغمغمَ :

« لقد حاول ان يقتلني . كان يحاول ان يستولي على صندوق امه الحديدي . . . ولقد اردت ان احبسه في المنزل الصغير إيثاراً للعافية . »

وكان تشيبراكوف سكران ، فلم يتبيّنّي . وانشأ يأخـذ انفاساً عميقة متلاحقة وكأنما كان على وشك ان يصيح : « النجدة » كرةً اخرى .

ثم إني تركتها وانقلبت الى المنزل . كانت زوجتي مستلقية على فراشها ، وكانت قد ارتدت ثيابها . وأخبرتها بالذي حصل في الفِناء ، ولم اكتمها اني ضربتُ مويزي .

فقالت :

« من الفظيع ان يحيا الانسان في الريف . وياما أطوله من ليل ! أوه ، ياعزيزي ، ليته ينتهي ! »

وبعد هنيهة سمعنا من جديد :

« النجـ . . . ـدة ! »

فقلت :

« سوف أمضي وأضع حداً لذلك . »

فقالت وقد طفت على وجهها انطباعة تقزّز :

« لا ، دعها يعضّ احدهما حنجرة الآخر . »

كانت تتطلع الى السقف ، مصيخةً ، فيما جلستُ الى جانبها غير مجترىءٍ على ان اخاطبها ، شاعراً وكأنني انا الملوم لصياحها « النجدة » في الفِناء ، ولتطاول الليل تطاولاً ما ينقضي .

واعتصمنا بالصمت ، وانتظرت بفـــارغ صبر أن أرى الى بصيص من نور عند النافذة ، وبدت ماشا طوالَ الوقت وكأنما استيقظت من ذهول عميق ، فهي تعجب الآن كيـف اقبلت ، هي البارعة ، المثقفة ، الأنيقة ، الى ابعد حدود البراعة والثقافـة والاناقة ، على هذا الثقب الريفي الفارغ الحقير ، وعاشت وسط جماعة من الناس التافهين الذين لا شأن لهم . وكيف قدّر لها ان تنسى نفسها على نحوٍ لم تعهده من قبل حتى لقد أجازت لذاتها ان

يفتنها واحد من هؤلاء ، وان تغدو لستة اشهر او يزيد زوجة له . لقد بدا لي انها ما كانت تبالي في تلك اللحظة ما اذا كان الصائح هو انا ، او مويزي ، او تشيبراكوف . لقد ذاب كل شيء ، في وهمها ، في تلك « النجدة » الوحشية السكرى - أنا وزواجنا ، وعملنا معاً ، وطينُ الخريف وثلجه الواهن . حتى اذا تنهدت او تحركت الى وضع ادعى الى الراحة قرأتُ على وجهها : « أوه ، ليت ذلك الصبح ينبلج في سرعة ! »

وعند الصباح مضت لسبيلها . وقضيتُ ثلاثة ايام اخرى في دوبتشنيا متوقعاً عودتها . واخيراً عبأتُ اشياءنا كلها في غرفة واحدة ، وأقفلتها ، واتخذتُ طريقي الى البلدة . وكان الليل قد هبط عندما قرعت باب المهندس ، وكانت المصابيح العامة مضاءة في شارع دفوريانسكي الكبير . وقال لي بافيل إن المنزل خالٍ من اهله . فقد مضى فيكتور ايفانيتش الى بطرسبرج ، وقصدت ماريا فيكتوروفنا الى بيت آزوغين ، في اغلب الظن ، لتشهد إعادة لأحدى الروايات . وانا اذكر بأيّ انفعال شخصتُ الى بيت آزوغين ، وكيف اخذ قلبي يخفق فيما كنت ارتقي السلم ، وكيف لبثت فترة طويلة واقفاً على المنبسَط الاعلى ، من غير ان اجد في نفسي الجرأة على دخول ذلك الهيكل ، هيكل عرائس الشعر والغناء ، وكانت مجموعات من الشموع مضاءة في كل ناحية من نواحي الغرفة الرحبة : على المائدة الصغيرة ، على البيانو ، وعلى المسرح ، كل مجموعة تتألف من ثلاث شموع . وكان الثالث عشر من الشهر قد حُدّد موعداً

لتمثيل الرواية امام النظارة ، اول مرة ، وها قد اختير يوم الاثنين للقيام بالتمرين الاول عليها ، وهو يوم مشؤوم . وإنما قصد بذلك كله الى ان يكون جزءاً من الحرب على الخرافة! وكان المتعبدون للفن التمثيلي قد اجتمعوا كلهم ، وكانت الاخوات الثلاث ، الكبرى والوسطى والصغرى ، يذرعن خشبة المسرح جيئة وذهوباً ، تاليات ادوارهن بمساعدة مخطوطات كن يحملنها بأيديهن . وفي معزل عن الجميع وقف راديش ، جامداً لا يريم ، وقد اسند رأسه الى الجدار ، فيما راحَ يحدّق في خشوع وتقديس الى المسرح ، منتظراً ان تبدأ الأعادة . كان كل شيء كعهده ، لم يتغير .

وتقدّمتُ نحو مضيفتي . وكان عليّ ان اقدم احتراماتي اليها ، ولكن كل امريء ما لبث فجأةً ان قال: « هُشْ ! » ولوّح لي بأن أخفف الوطأ . وران الصمت على المكان . ورُفع غطاء البيان . وجلست سيدةٌ إليه ، مضيّقةً عينيها المصابتين بقصر البصر للموسيقى . وتقدّمت ماشا ، ماشاي انا ، الى البيان في ثوب يكشف عن العنق والكتفين ، وقد بدت جميلة ، ولكنّ جمالها هذه المرة كان من ضرب جديد خاص يجعلها لا تشبه البتة ماشا القديمة التي كانت تفدُ في ايام الربيع للقائي عند الطاحونة. وغنّت : « لماذا أحب الليل المتألق ؟ » كانت أول مرة - خلال معرفتي الطويلة بها - سمعتها فيها تغني . وكان صوتها رائعاً رخياً قوياً ، وفيما هي تغني استشعرتُ وكأنما كنت آكل بطيخة ناضجة عذبة فواحة العبير . حتى اذا اوفت على الغاية ، صفق النظارة لها ، فابتسمت ، وقد غمرها

الحبور ، وراحت تتطرّف بعينيها ؛ وتغمغم بالموسيقى مسوّية تنورتها مثل طائر وفق آخر الأمر الى ان يحطم قضبان قفصه ، فهو يصلح ريشه بمنقاره في حرية وانطلاق . وكان شعرها مرجّلاً فوق أذنيها ، وكانت تطفو على وجهها سيما بغبضـــة مستفزّة ، وكأنما تريد ان تتحدّانا جميعاً ، او تخاطبنا كما كانت تخاطب خيلها :

« هاي ، هاي ، يا أفراسي الجميلة ! »

وليس من ريب في انها كانت في تلك اللحظة تشبه أعظم الشبه جدّها سائق المزلجة .

وقالت وهي تبسط يدها لي :

« وأنت هنا أيضاً ؟ هل سمعتني أغني ؟ حسناً ، ما قولك في غنائي ؟ »

ومن غير أن تنتظر جوابي أردفت :

« لقد كان وجودك ههنا خيراً . فأنا ذاهبة الليلة الى بطرسبرج لأقضي فيها فترة قصيرة . سوف تدعني أذهب ، اليس كذلك ؟ »

وعند منتصف الليل مضيت معها الى المحطة . وعانقتني في محبة وحنان ، ولعلها ارادت بذلك أن تشكرني لعدم إزعاجها باسئلة لا ضرورة لها ، ووعدتني بأن تكتب اليّ . وامسكت بيديها برهة طويلة ، وقبّلتهما ، عاجزاً عن أن اكبح جماح دموعي ، وممسكاً عن التفوّه بكلمة .

حتى اذا مضت لسبيلها وقفت اراقب الاضواء المتقهقرة ، ملاطفاً إياها في الخيال ، مغمغماً في رفق :

« ماشا الحبيبة ، ماشا الماجدة ... »

وبتّ تلك الليلةَ في منزل كاربوفنا . وفي صباح اليوم التالي ، عدتُ الى العمل مع راديش ، وكان علينا ان نجدد الأثاث لرجل ثريّ اعتزم ان يزفّ ابنته لأحد الاطباء .

١٧

ويوم الأحد وفدت أختي عليّ ، بعد الغداء ، وتناولت الشاي معي . وقالت وهي تريني الكتب التي حملتها اليّ من المكتبة العامة :

« لقد قرأتُ كثيراً في الفترة الاخيرة . وانا اشكر لزوجتك ، ولفلاديمير انهما ايقظاني على الادراك الذاتي . لقد حملا اليّ الخلاص وجعلاني اشعر انني كائن بشريّ . في الايام السالفة ، كنت اضطجعُ ليلًا ، مفتوحة العينين ، مفكّرة ايّ مقدار ضخم من السكّر استهلكنا خلال الاسبوع ، او راجيةً ان لا يكون مخلّل الخيار مالحاً باكثر مما ينبغي . واليوم ايضاً ، أضطجعُ ليـــلًا مفتوحة العينين ، ولكنّ افكاري تغيّرت . إنه ليشقّ عـليّ ان يكون نصف حياتي قد انقضى على هذا النحو الأبـله الجبان . انا أزدري ماضيّ . انا خجلةٌ منه . واني لأنظر الى ابي وابيك ، الآن ، نظرتي الى عدوّ . أوه ، كم انا معترفةٌ بفضل زوجتك ! وفلاديمير ! انه شخصٌ رائعٌ الى ابعد الحدود ! لقد فتحا عيني ! »

فقلت :

« إن عدم نومك ليلًا شيء غير حسن . »

— « أتحسب اني مريضة ؟ لا ، على الاطلاق . لقد فحصني فلاديمير وقال اني في حالٍ ممتازة . ولكن المعوّل ليس على الصحة ؛ انها

ليست هامة الى ذلك الحد ... قل لي : أأنا على صواب ؟ »

كان واضحاً انها في حاجة الى تأييد معنوي . فقد مضت ماشا لسبيلها ، وكان الدكتور بلاغوفو في بطرسبوج ، ولم يكن قد بقي في البلدة احدٌ غيري ليقول لها انها على صواب . وانعمت النظر في وجهي ، محاولةً ان تقرأ افكاري الخفية . وكانت اذا رأتني مستغرقاً في التفكير او صامتاً ، اثناء وجودها الى جانبي ، ظنت ذلك على حسابها ، واخذها الحزن والغم فكان عليّ ان اتخذ حذري دائماً ، حتى اذا سألتني سؤالها ذاك سارعت الى ان اؤكد لها انها كانت على صواب ، واني اكنّ لها احتراماً عميقاً .

وتابعت حديثها :

« هل تدري انهم اسندوا اليّ دوراً اتدرّب عليه في منزل آل آزوغين ؟ اريد ان امثل على المسرح ، اريد ان احيا - في الحق ، اني اعتزم ان أُفرغ الكأس الطافحة . انا لا مواهب عندي البتة ، وليس يزيد الدور على عشرة اسطر ، ومع ذلك فهذا احسن واسمى ، بما لا يقاس ، من صب الشاي خمس مرات في اليوم ، والتأكد من ان الطاهي لم يأكل اكثر مما يجب . وفوق ذلك كله دع والدي يرى انني قادرة على الاحتجاج . »

وبعد الشاي اضطجعت على سريري ، واغمضت عينيها فترةً قصيرة بدت خلالها شاحبة جداً .

وحين نهضت قالت :

« وما هذا الضعف ؟ يقول فلاديمير ان جميع النساء والفتيات اللواتي نشأن في المدن مصابات بفقر الدم بسبب من انهن لا يعملن

شيئاً . ياله من رجل بارع ! إنه مصيب ، مصيب مئة ٌ بالمئة . ينبغي ان نعمل ! »

وبعد يومين اقبلت علـى بيت آزوغين ، ومعها مخطوطتها ، لتشترك في الاعادة . كانت ترتدي ثوباً أسود ، وقد طوق جيدها عقد من المرجان ، وأنشب في ثوبها دبوس مرصع (بروش) بدا من بعيد اشبه ما يكون بمجنّة فارغة الجوف ، وتدلى من اذنيها قرطان يتلألآن بالماس . وحين القيتُ عليها نظرة ً ، استشعرت شيئاً من الضيق : لقد صدمتني قلة ذوقها . والواقع ان آخرين لاحظوا ايضاً انهـا تزينت بالحلى الماسية على نحوٍ غير لائق ، وارتدت ملابس غريبة حقاً . فقد رأيت الابتسامات على وجوه الناس ، وسمعتُ بعضهم يقول وهو يطلق ضحكة ً :

« كليوباترة ملكة مصر ! »

كانت تحاول ان تصطنع آداب المجتمع ، ان تستشعر الانطلاق والحرية ، وبذلك بدت متكلفة وغريبة . لقد فقدت البساطـــة والعذوبة .

وقالت لي وهي تقترب مني :

« لقد اخبرتُ والدي ، اللحظـــة ، أنني ذاهبة لأشترك في الاعادة ، فصاح قائلًا إنه لن يمنحني بركته ، بـل كاد ان يضربني حقاً . تخيّلْ انني لا اعرف دوري ... »

والقت نظرة على مخطوطتها ، ثم اردفت في انفعال بالغ :

« أنا واثقة من انني سأخفق في أدائه . ولكن فليكن ، لقد اتخذت قراري ، لقد اتخذت قراري .. »

وتراءى لها وكأن كل امرىء كان ينظر اليها ، وانهم جميعاً منذهلون للخطوة الخطيرة التي خطتها ، وان كلاً منهم كان يتوقع ان تقدّم شيئاً خاصاً خارقاً للعادة ، فكان من المتعذر اقناعها بأن أحداً ما كان ليأبه لأناسٍ مثلي ومثلها بلغوا الغاية من التفاهة وقلة الخطر .

ولم يكن لها ما تعمله حتى الفصل الثالث . وكان عليها ان تمثل دور زائرة صديقة من الريف ، وكان ذلك يقتضيها ان تقف لدى الباب وكأنها تستمع ، ثم تلقي كلمة قصيرة . وفي الفترة التي سبقت صعودها الى المسرح ، وقد استغرقت ساعة ونصف ساعة على الاقل ، فيما كان القوم يتحركون حول المسرح مؤدين ادوارهم ، ويشربون الشاي ويتجادلون ، لم تفارقني لحظة ، وأنفقت الوقت كله تهمهم بالكلمات التي يتألف منها دورها ، وتطوي المخطوطة في عصبية . واذ كانت تتخيل ان كل امرىء ينظر اليها وينتظر ظهورها على المسرح ، فقد ردّت شعرها الى الوراء بيد مرتجفة وقالت لي :

« سوف أخفق في اداء دوري من غير شك ... ليتك تعلم ايّ ثقل يرهق فؤادي ! احسّ اني مذعورة ، وكأنني على وشك ان أساق الى المشنقة . »

وأخيراً جاء دورها . فقال مدير المسرح :

« كليوباترة الكسيفنا ، إستعدي ! »

وتقدمت الى وسط المسرح ، وقد عصف بها الذعر وبدا وجهها بشعاً حادّ الزوايا . وطوال نصف دقيقة ، وقفت وكأنها

في غيبوبة ، فهي جامدة لا حراك بها ، لولا ان قرطيها الطويلين كانا يتأرجحان في شحمتي اذنيها .

وقال أحدهم :

« باستطاعتكِ ، في هذه الأعادة الأولى ، أن تقرأي الدور قراءة . »

كان واضحاً عندي انها ترتجف ، وان ارتجافها شديد الى درجة جعلت من المتعذر عليها أن تتكلم ، وأن تفتح مخطوطتها . وانها عاجزة عن ان تقوم بالدور الذي أُسند اليها . وكنتُ على وشك أن امضي نحوها واقول لها شيئاً عندما سقطت ، فجاءةً ، على ركبتيها وسط المسرح ، واخذت تنشج وتعول .

وساد الهرج والمرج . وبقيتُ وحدي واقفاً في هدوء ، مستنداً الى جدار المسرح الجانبي ، وقد اصابني الذهول لما وقع ، وعجزتُ عن ان أدرك شيئاً ، وعن ان افهم ما الذي ينبغي ان يعمل . ورأيتهم يرفعونها ويُبعدونها عن المسرح . وبصرتُ بآنيوتا بلاغوفو تقترب مني . ولم اكن قد رأيتها في الغرفة من قبل ، ولقد بدت وكأنها نبعتْ من تحت الارض . كانت ترتدي قبعتها وبرقعها ، وبدت على وجهها ، شأنها دائماً ، سيما من أقبل ليمكث لحظةً ليس غير .

وقالت مغضبةً ، وهي تنتزع كل كلمة من كلماتها انتزاعاً ، وقد حال لون وجهها قرمزياً :

« لقد قلت لها ان لا تشترك في التمثيل . ذلك جنون ! كان ينبغي لك أن تمنعها ! »

وسارعت السيدة آزوغين ، وقد ارتدت سترة قصيرة ذات رذنين قصيرين ، وعلا صدرها شيء من رماد السجاير ، وبدت نحيلة رقيقة ، وقالت وهي تلوي يديها ،على مألوف عادتها،وتحدق الى وجهي :

« هذا شيء فظيع ، يا عزيزي ! هذا شيء فظيع ! إن أختك في حالة . . . انها حبلى . اذهب بها من هنا ، اتوسل اليك . . . »

كانت تلهث من الاهتياج ، فيما وقفت الى جانب منها بناتها الثلاث ، نحيلات رقيقات مثلها سواء بسواء ، منكمشاً بعضهن على بعض في ذعر شديد . لقد اخذهن القلق والانسحاق وكأن مجرماً القي عليه القبض في بيتهن . اي خزي ، واية فظاعة !ومع ذلك فقد قضت هذه الاسرة المحترمة عمرها وهي تشن الحرب على الخرافة . وواضح أنهن كن يحسبن ان جميع خرافات الانسانية وضلالاتها مقصورة على الشموع الثلاث ، والثالث عشر من الشهر ، ونكد طالع يوم الاثنين !

وكررت السيدة آزوغين ، مجعدة شفتيها على شكل قلب وهي تلفظ الكلمة الاولى :

« ارجوك . . ارجوك . . أتوسل اليك ان تحملها الى منزلها . »

١٨

وبعد فترة وجيزة كنت أنا وأختي نتخذ سبيلنا في الشارع . لقد غطيتها بفضل سترتي . وأسرعنا الخطى ، مؤثرين الشوارع الخلفية ، حيث لا اضواء عامة ، مجتنبين السابلة . كنا أشبه ما

نكون بطريدين فارّين . وكفّت عن البكاء ، وراحت تنظر اليّ بعينين جافتين . وكان منزل كاربوفنا ، الى حيث اخذتها ، على مسيرة عشرين دقيقة ليس غير . ومن عجب اننا وفقنا في تلك الفترة القصيرة الى ان نفكر في حياتنا كلها . لقد تحدثنا في كل شيء ، واستعرضنا وضعنا ، وأنشأنا نتأمل . . .

وقررنا اننا لا نستطيع ان نقيم ، بعدُ ، في هذه البلدة ، وان نرحل الى مكان آخر حالما اكسب قليلاً من المال . وفي بعض البيوت كان كل امرىء نائماً ، وفي بعضها الآخر كان القوم يلعبون الورق . وأبغضنا تلك البيوت ، وخفناها . وتحدثنا عن التعصب ، وعن تبلّد الشعور ، وعن تفاهة هذه الأسر المحترمة ، واولئك الهواة المولعين بالفن المسرحي الذين اوقعنا الذعر في قلوبهم الى هذا الحدّ . وبقيتُ اتساءل بأيّ شيء يمتاز هؤلاء القوم البلهاء ، الوحشيون ، الكسالى ، المخاتلون ، عن فلاحي كوريلوفكا السكيرين المستسلمين لسلطان الخرافة ؟ أو بأي شيء يمتازون عن الحيوانات التي يصيبها الذعر ، مثلهم ، كلما عكرت حادثةٌ ما رتابة حياتها المحدودة بغرائزها ؟ وما الذي كان يمكن ان يقع لأختي الآن لو تُركت لتحيا في البيت ؟

أية عذابات معنوية كان خليقاً بها ان تقاسيها وهي تتحدث الى أبي ، وتجتمع كل يوم الى المعارف والاصدقاء ؟ لقد تمثلتُ ذلك في مخيلتي ، فبدت لي في الحال صور اولئك الناس — جميع اولئك الناس الذين اعرفهم ، والذين أهلكهم اقرب اقربائهم وفرضوا عليهم الموت البطيء . لقد ذكرت الكلاب التي سيمت سوء

العذاب ففقدت صوابها ، وعصافير الدوري الحية التي تنتف الاولاد ريشها حتى غدت عارية بالكلية ثم ألقوا بهـــا الى الماء ، وسلسلة طويلة ، طويلة من ضروب البلاء الغامض المتمهّل التي قدّر لي ان اشهدها منذ صباي الأول في تلك البلدة . ولم أستطع ان افهم لأي شيء يحيا هؤلاء الستون الفاً من الناس ، ولأي غرض يقرأون الكتاب المقدس ، ولماذا يصلّون ، ولماذا يقرأون الكتب والمجلات . أيّ خير جَنَوْهُ من كل ما قد قيل وكُتب حتى الآن اذا كانوا لا يزالون غارقين في دياجير من الظـلام الروحي وبغض الحرية ، كالتي غرقوا فيها منذ مئة عام او ثلاثمئة عام ؟ إن المعلّم النجار يقضي حياته كلها يبني بيوتاً في البلدة ، ثم يظـل حتى اللحظة الاخيرة من حياته يقول « لواق » بدلاً من « رواق » . وهكذا قرأ الستون الفاً وسمعوا عن الحق والعدل ، وعن الرحمة والحرية طوال اجيال متعاقبة ، ومع ذلـــك فهم يكذبون من الصباح الى المساء ، وحتى اليوم الذي يتخطّفهم الموت فيـــه ، وينكّل بعضهم ببعض ، ويخشون الحرية ويكرهونها وكأنها عدوّ مميت .

وقالت أختي حين بلغنا البيت :

« وهكذا تحدّد مصيري . انا لا استطيع بعد هـذا الذي حدث أن ارجع الى هناك . يا الـهي ، ما أحسن ذلك ! إن فؤادي ليبدو اقل اكتئاباً من ذي قبل . »

ومضت الى السرير في الحال . كانت الدمـــوع تلتمع على أهدابها ، ولكن سيما وجهها كانت تؤذن بأنها سعيدة . وغرقت

في نوم عميق عذب . وكان في ميسور المرء ان يرى ان فؤادها كان مستبشراً حقاً ، وأنها كانت تأخذ نصيبها من الراحة . لقد انقضت فترة طويلة ، طويلة جداً ، لم تنم فيها قريرة العين على هذا النحو .

وهكذا بدأنا حياتنا معاً . كانت تغني ابداً ، وتقول إن حياتها تمور بالسعادة . وارجعت الكتب التي حملتها اليها من المكتبة العامة من غير ان تقرأها ، فقد غدت اليوم غير قادرة على المطالعة . كانت لا تريد ان تعمل شيئاً غير ان تحلم بالمستقبل وتتحدث عنه ، وهي ترفو ألبستي الكتانية او تساعد كاربوفنا قرب الموقد . كانت ابداً تغني ، او تتحدث عن صاحبها فلاديمير ، مُطرية براعته ، وخُلقه الفاتن ، وكرم نفسه ، وثقافته الخارقة ، فكنت اقرّها على كل ما تقول ، برغم أني انتهيتُ في ذلك الحين الى ان أبغض طيبها ذاك . كانت تريد ان تعمل ، أن تحيا حياة مستقلة تمكّنها من الانفاق على ذاتها . وكان من دأبها ان تقول إنها ستعمل مدرّسة او معاونة طبيب حالما تسمح لها صحتها بذلك ، وأنها خليقة بأن تقوم هي بنفسها بأعمال التنظيف والغسل . وكانت قد بدأت منذ الآن تستشعر حباً لابنها غامراً . لم يكن قد وُلد بعد ، ولكنها عرفت سَبْقاً لون عينيه ، وشكل يديه ، والطريقة التي سيصطنعها في الضحك . وكانت مولعة بالكلام على التربية . وإذ كان صاحبها فلاديمير خير إنسان في الوجود فقد كان في الامكان تلخيص مباحثها التربوية كلها في سؤال واحد : ما السبيل الى جعل الغلام فاتناً كأبيه . ولم يكن لحديثها

نهاية ، وكان كل ما تقوله يوقع في نفسها البهجة العارمة . وكنت أبتهج في بعض الاحيان ايضاً ، على الرغم من انني ما كنت قادراً على أن اعرف سبب ذلك .

وأحسبُ أن نزعتها الحالمة أعدتني . فأقلعتُ ، انا ايضاً ، عن المطالعة ، ولم آتِ عملاً ما غير الاستسلام للأحلام . وفي الأمسيات ، كنت اذرع الغرفة ، برغم تعبي ، جيئة وذهوباً ، واضعاً يديّ في بعض جيوبي ، متحدثاً عن ماشا .

كنت أسأل أختي :

« ما رأيك ؟ متى ستعود ؟ أظن أنها ستعود في عيد الميلاد ، لا بعده . ايّ شيء ينبغي لها ان تعمله هناك ؟ »

— « ما دامت لا تكتب اليك فمن الواضح انها سترجع في وقت قريب جداً . »

وأقررتها على رأيها ، قائلاً :

« هذا صحيح . »

على الرغم من علمي اليقينيّ ان ماشا لن ترجع الى بلدتنا .

لقد برّح بي الشوق اليها ، ولم يكن في طاقتي ان اخدع نفسي ، فأنا أحاول ان أحمل الآخرين على خداعي . كانت أختي تنتظر صاحبها الطبيب ، وكنتُ أنا انتظر ماشا . وتحدث كلٌّ منا على غير انقطاع ، وضحكنا ، ولم ننتبه الى أننا نذود النوم عن عيني كاربوفنا . كانت تضطجع على الموقد وتغمغم :

« لقد دندن السماور هذا الصباح وصاح هممم ! أوه ، انه لا يبشّر بخير ، يا أحبائي ، إنه لا يبشر بخير ! »

ولم يفد احدٌ قطّ على منزلنا غير ساعي البريد الذي كان يحمل الى أختي رسائل من الدكتور ، وغير بروكوفي الذي كان يقبل لزيارتنا ، احياناً في المساء ، فيلقي نظرةً على اختي من غير ان يوجّه اليها كلمة ويمضي لسبيله . حتى اذا احتواه المطبخ قال :

« على كل طبقة أن تتذكر قواعدها وتقاليدها . وكل من يبلغ به الغرور حداً يجعله لا يفهم ذلك سوف يجد انها وادٍ للدموع . »

وكان شديد الولوع بعبارة « وادٍ للدموع » . وذات يوم — وكان اسبوع الميلاد — فيما كنت أجوز السوق دعاني الى دكانه . ومن غير ان يصافحني أعلن انه يريد مخاطبتي في امر بالغ الاهمية . كان وجهه احمر من الصقيع والفودكا . وقريباً منه ، خلف المنضدة ، وقف نيقولا ، وعلى وجهه سيما قاطع طريق ، وفي يده مديةٌ ملطخة بالدم .

واستهلّ بروكوفي حديثه فقال :

« احبّ ان أصارحك . إن هذه الحال لا يمكن أن تستمرّ ، لأنك تعلم جيداً ان الناس في وادي الدموع هذا لن يتحدثوا عنكم ولا عنا حديثاً طيباً . وأمي لا تستطيع ، بسبب اشفاقها عليك ، ان تقول لك شيئاً يسوءك ، ان تقول لك ان اختك يجب ان تنتقل الى منزل جديد بحكم حالتها ، ولكني لن أبقيها اكثر مما فعلت ، لانني لا استطيع ان اوافق على سلوكها . »

وفهمتُه ، وغادرتُ الدكان . وفي اليوم نفسه انتقلتُ انا وأختي الى منزل راديش . ولم يكن معنا مال يمكننا من استئجار

عربة ذات حصان واحد ، فرحنا نمشي عـــلى اقدامنا . وحملتُ حزمة تحوي ممتلكاتنا على ظهري، اما اختي فلم تحمل بيديها شيئاً، ولكنها انشأت تلهث وتسعل، ولا تكفّ عن سؤالي متى سنصل.

١٩

وأخيراً جاءتني رسالة من ماشا . وكانت الرسالة تقول :

« يا عزيزي الطيب « م أ . » ، يا ملاكنـا الكريم اللطيف كما كان الدهان القديم يدعوك - وداعـاً ! سوف أذهب مع أبي الى اميركة لأشهد المعرض . وبعد ايام قليـلة ، سأرى المحيط - بعيداً عن دوبتشنيا الى حدّ يروّعني التفكير فيه ! انـه كالسماء ، بعيدٌ ليس يُفهَم ، واني لاتوق الى ان اجد نفسي هناك في غمرة الحرية . انا منتصرة . أنا محبّـــلة ، وفي ميسورك أن ترى أن التماسك يُعوز رسالتي هذه . فيا عزيزي الطيب ، امنَحْني حريتي . سارع الى قطع الخيط الذي ما يزال يربط ما بيني وبينك . لقد كان تعرّفي اليك شعاعاً من السماء اضاء وجودي . ولكنّ زواجي منك كان غلطة - انت تفهم ذلك - وأنا ارزح الآن تحت وعي هذه الغلطة . اني اتوسل اليك ، راكعة ، يا صديقي السمح ، ان تسرع اقصى ما تستطيع الاسراع الى الابراق لي ، قبل ان اقتحم المحيط ، معلناً موافقتك عـلى تصحيح غلطتنا المشتركة ، وانتزاع الحجر الوحيد الذي يعوق جناحيّ . وقد وعدني أبي الذي سينهض بالاجراءات كلها ، بأن لا يُثقل عليك كثيراً بالشكليات الرسمية . وهكذا أصبح حرة في ان أطير حيث اشاء ؟ نعم ؟

« كن سعيداً ، والله يباركك . إغفر لي انا الخاطئة .

« إني في حالٍ جيدة . أبدّد المال ، ولا أعمل غير اشياء تافهة حمقاء ، وانا احمد الله كل دقيقة على ان لم يرزق امرأة طالحة مثلي أولاداً . إني اغني وألقى نجاحاً . وما ذاك حباً بالغنـــاء . لا ولكنه ملاذي – إنه صومعتي التي ألتمس فيها الامن . لقد كان للملك داود خاتم منقوش عليه « كل شيء يزول » وحين يستولي الحزن على المرء تجعله هذه الكلمات يهيج النفس ، وحين يكون المرء سعيداً توقع في فؤاده الحزن . وان عندي انا خاتماً مثل ذلك نُقش عليه كلام بأحرف عبرية ، وهذا الطلسم يقيـــني ضروب الافتتان . كل شيء يزول . والحياة سوف تزول . وليس يحتاج المرء الى شيء . او على الاقل ، ليس يحتاج الى شيء غـــير حسّ الحرية ، لأنه حين يكون المرء حراً فليس يطلب شيئاً البتـــة ، البتة ، البتة . إقطع الخيط . ضمّة حارة لك ولأختـك . واغفرْ لـ « م » وانسَها . »

وكان من عادة اختي ان تضطجع في احدى الغرف ، على حين يضطجع راديش ، الذي عاوده المرض من جديد ثم استرد نشاطه ، في غرفة اخرى . وفي اللحظة نفسها التي تلقيتُ منها تلك الرسالة ، مضت اختي في رفق الى غرفة الدهان وقعدتْ الى جانبه وانشأت تقرأ في صوت عالٍ . وقرأت عليه كل يوم شيئاً من اوستروفسكي أو غوغول ، وكان هو يصغي ، محدقاً الى نقطة واحـــدة ، غير ضاحكٍ ، ولكنْ محركاً رأسه ومتمتماً بين الفينة والفينة :

« كل شيء قد يحدث ! كل شيء قد يحدث ! »

واذا ما وُصف في المسرحية امرٌ بشع او غير لائق فعندئذ يقول وكأنما يُقحم إصبعه ، انتقاماً ، في الكتاب :

« ذلك هو ، الكذب ! ذلك ما يفعله الكذب ، الكذب ! »

وكانت المسرحيات تفتنه ، سواء بموضوعاتها او بمغزاها الأخلاقي ، او ببنائها المعقد البارع . فهو لا يقضي العجب من « مؤلفها » غيرَ مشير اليه باسمه على الاطلاق ، معبراً عن ذلك بمثل قوله :

« ما اروع هذا البناء الذي أقامه هو ! »

وهذه المرة قرأت أختي صفحة واحدة ، قراءةً رفيقةً ، ثم لم توفق الى ذلك بعد : لقد خانها صوتها . وامسك راديش بيدها ، وحرّك شفتيه الجافتين ، وقال في صوت أجشّ لا يكاد يُسمع :

« إن نفس الرجل الصالح بيضاء ناعمة كالطباشير ، ولكن نفس الرجل الآثم أشبه بحجر الصقل (الحفّان) . نفسُ الرجل الصالح كالزفت الصافي ، ولكن نفس الرجل الآثم كقطران الغاز . »

وسكت هنيهةً ثم اردف :

« يجب أن نعمل . يجب ان نكتئب . يجب ان نقاسي السقم والمرض . وكل من لا يعمل ولا يكتئب فلن يكسب ملكوت السماء . ويلٌ ، ويلٌ للمتخمين ، ويل لاصحاب النفوذ ، ويلٌ للاغنياء ، ويلٌ للمرابين ! ان ملكوت السماء ليس لهم . الحشرات تهلك العشب ، والصدأ يهلك الحديد . . . »

واضافت اختي ضاحكة :

« والكذب يتلف الروح ! »

وقرأتُ الرسالة كرة أخرى . وفي تلك اللحظة تقدّم الى المطبخ جندي كان يأتينا مرتين في الأسبوع برزم من الشاي والخبز الفرنسي والمصيد من الطير ، كانت تعبق منها رائحة العطر ، ويبعث بها إلينا واهبٌ لا نعرفه . ولم يكن لديّ عملٌ اقوم به . فكان علي ان أقعد في البيت عاطلاً عن العمل أياماً موصولة ، ولعل الذي كان يرسل الينا الخبز الفرنسي كان يعلم اننا في عَوَز .

وسمعتُ اختي تتحدث الى الجندي وتضحك في مرح . ثم إنها اضطجعت ، وأكلت شيئاً من الخبز الفرنسي ، وقالت لي :

« حين رفضتَ ان تلتحق بالوظيفة مؤثراً ان تعمل دهاناً منزلياً ، ادركتُ أنا وآنيوتا بلاغوفو منذ البدء انك على صواب ، ولكنا خشينا ان نصرّح بذلك جهاراً . قل لي ، أية قوة تلك التي تحول بيننا وبين ان نقول ما نعتقد ؟ خذْ آنيوتا بلاغوفو ، الآن ، مثلاً . إنها تحبك ، إنها تعبدك ؛ انها تعرف انك على صواب . وهي تحبني كذلك حبّ الاخت اختها ، وتعرف أنني على صواب . واستطيع ان اقول انها فيما بينها وبين نفسها تحسدني ، ولكن قوة ما ، تحول بينها وبين المجيء لزيارتنا . إنها تجتنبنا ، انها تخاف . »

وصالبت اختي ذراعيها فوق صدرها ، وقالت في انفعال :

« ليتك تعلم كم تحبك ! انها لم تعترف بحبها لأحد سواي ، وقد أمرّت لي بذلك تحت جنح الظلام . لقد قادتني الى مجاز معتم في الحديقة وراحت تحدثني همساً عن مكانتك في قلبها . سوف ترى ، انها لن تتزوج ابداً ، لانها تحبك . هل انت حزين لحالها ؟ »

— « اجل . »

– « انها هي التي ارسلت الينا الخبز . انها لمضحكة حقاً . اي فائدة من الكتمان الى هذا الحد ؟لقد كنت من قبل سخيفة بلهاء، اما اليوم فقد تغلبت على ضعفي ذاك وغدوت لا اخشى احداً . انا افكر واصرح جهاراً بما احب ، واني لسعيدة . حين كنت احيا في بيت ابي لم تكن عندي فكرة عن السعادة . اما اليوم فأجد نفسي خيراً من ملكة . »

ورجع الدكتور بلاغوفو من بطرسبرج . لقد حصل على شهادة الطب ، وراح يحيا مع ابيه في بلدتنا . كان يأخذ نصيبه من الراحة قائلاً إنه سوف ينقلب وشيكاً الى بطرسبرج . ذلك بأنه كان يبتغي ان يدرس موضوع التلقيح ضد التيفوس ، وضد الكوليرا – في ما أعتقد – ايضاً . وكان يبتغي السفر الى الخارج لاستكمال دراسته ، ليعود بعد فيُعيّن استاذاً . لقد ترك خدمة الجيش ، فهو يرتدي سترة صوفية قصيرة واسعة ،وبنطلوناً عريضاً وربطة عنق رائعة . وكانت اختي تفتن بدبوس وشاحه ،والازرار التي ترصع صدر قميصه ، والمنديل الحريري الاحمر الذي كان يضعه تأنقاً وتظرفاً في ما احسب ، في جيب سترته الخارجية العليا . وذات يوم وجدنا نفسينا وليس عندنا ما نعمله ، فأخذنا نحصي البذلات التي شاهدناه مرتدياً اياها ، على قدر ما اسعفتنا الذاكرة فاذا هي عشرٌ على الاقل . كان واضحاً انه لا يزال يحب اختي ، شأنه من قبل ، ولكنه لم يتحدث قط مرةً ،ولو في ايماء، عن رغبته في اصطحابها الى بطرسبرج او الى الخارج ، ولم اكن استطيع ان اتصور في وضوح ما الذي سيحل بها اذا ظلت على قيد الحياة ،وما

الذي سيحل بطفلها . ولم تكن لتعمل شيئاً غير الاسترسال في الاحلام . ولم تكن تفكر في المستقبل البتة . لقد قالت ان في ميسوره ان يذهب حيث يشاء، بل ان في ميسوره ان يهجرها ايضاً، فليست تجد في ذلك بأساً ما دام هو سعيداً . ان سعادته هي كل مـــا تطمع فيه .

وكان من عادته، كلما رجع من رحلة له، أن يفحصها فحصاً دقيقاً ويصر على ان تحتسي اللبن ، ودواء النقط امامه . وهذا ما حصل هذه المرة ايضاً . لقد فحصها وكلفها ان تشرب كأساً من اللبن ، وبعد ذلك فاحت في غرفتنا رائحة روح القطران (كريبازوت) .

وقال وهو يأخذ الكأس منها :

« هناك فتاة طيبة . ينبغي ان لا تتحدثي كثيراً الآن . لقد اعتدت الثرثرة كالشقراق في المدة الاخيرة . ارجوك ان تلزمي الصمت . »

وضحكت . ثم انه وفد على غرفة راديش حيث كنت جالساً وصفعني على كتفي في مودة وحب . وانحنى فوق فراش الرجل المريض ، وقال :

« حسناً ، كيف حالك ايها العجوز ؟ »

وحرك راديش شفتيه ببطء وقال :

« يا صاحب السعادة ، يا صاحب السعادة سأجترىء على التصريح برأيي .. نحن كلنا سير في نقوى ، وانا كلنا سنموت ... اسمح لي ان اقول لك الحقيقة ... يا صاحب السعادة ، إن ملكوت السماء لن يكون من نصيبك ! »

فقال الطبيب مازحاً :

« ليس لنا في الامر حيلة . ينبغي ان يكون بعض الناس في جهنم ، كما تعرف . »

وفي الحال اصيب وعيي بشيء ما . لكأنني كنت في حلم ، ولكأنني كنت واقفاً ذات ليلة من ليالي الشتاء في فناء المسلخ ، وبروكوفي الى جانبي ، تفوح منه رائحة مقوي البهار . وبذلت جهداً للسيطرة على نفسي ، وفركت عينيّ ، وفجأة بدا لي أني اتخذ سبيلي الى الاجتماع بالحاكم . ان شيئاً من مثل هذا لم يحدث لي من قبل ، ولم يحدث لي من بعد ، فعزوت هذه الذكريات الغريبة الشبيهة بالاحلام الى ان اعصابي مجهدة الى حد بعيد . لقد عشت من جديد مشاهد المسلخ ومقابلة الحاكم ، وفي الوقت نفسه كنت اعي وعياً مبهماً انها غير حقيقية .

وحين استعدت رشدي ألفيت اني لم اعد في المنزل ، ولكن في الشارع ، وقد وقفت مع الطبيب قرب مصباح من مصابيح الشارع . وكان يقول لي والدمع يتحدر على خديه :

« شيء مؤلم ، شيء مؤلم . إنها منشرحة الصدر ، فهي تضحك دائماً ، ويعمر فؤادها الأمل ، ولكنّ حالتها يائسة ، يا صديقي العزيز . إن صاحبك يبغضني ، وهو يحاول دائماً ان يُشعرني بأني اسأت معاملتها . انه مصيبٌ من وجهة نظره . ولكنّ لي وجهة نظري ايضاً . ولن اندم في يوم من الايام على كل ما حدث . يتعين على المرء ان يحب . يتعيّن علينا جميعاً ان نحبّ — أليس هذا صحيحاً ؟ إنه لا حياة بدون الحبّ . وكل من يخشى الحب ويخافه

ليس إنساناً حراً . »

وشيئاً بعد شيء انتقل الى موضوعات اخرى ، وانشأ يتحدث عن العلم وعن رسالته التي نالت الاعجاب في بطرسبرج . وانجرف في الكلام على موضوعه ، ولم يعد يفكّر لا في اختي ولا في حزنها ولا فيّ انا . كانت الحياة عنده ذات متعة غامرة . وقلت في ذات نفسي : إن لها اميركة وخاتمها ذا النقش ، على حين ان لهذا الشاب شهادته الطبية وكرسيّ الاستاذية التي يتطلع اليها ، فلم يبق مع الاشياء العتيقة غيري وغير اختي .

وحين ودّعته رجعتُ الى مصباح الشارع وقرأت رسالتها كرة اخرى . ولقد ذكرتُ ، وذكرتُ في قوة ، كيف اقبلت في ذلك الصباح الربيعي عليّ ، وكنتُ في الطاحونة ، واضطجعتْ على الارض وغطت نفسها بسترتها — لقد ارادت ان تكون مثل فلاحة بسيطة . وكيف اننا سحبنا الشبكة من الماء ، في مناسبة اخرى ، وكان ذلك صباحاً ايضاً ، وتساقطت علينا قطرات المطر الكبيرة من شجرات الصفصاف القائمة على حافة النهر ، وأخذنا في الضحك . . .

كان بيتنا في شارع دفوريانسكي مظلماً . فوثبت من فوق السياج ، كما كنت افعل في الايام الخالية ، وسلكت الطريق الخلفية الى المطبخ كي استعير فانوساً . ولم يكن في المطبخ احد . كان السماور يفحّ قرب الموقد ، في انتظار ابي . وتساءلت : من يصب لابي الشاي ، الآن ؟ حتى اذا اخذت الفانوس قصدت الى السقيفة واتخذت لنفسي من اوراق الصحف القديمة فراشاً ،

واضطجعت . وبدت الكلاليب التي على الجدران بشعة مقيتة شأنها من قبل ، وارتجفت ظلالها. وكان الجو بارداً . واستشعرتُ ان اختي سوف تأتي بعد دقيقة، وتحمل اليَّ طعام العشاء، ولكني ما لبثت ان ذكرت انها كانت طريحة الفراش في بيت راديش . وبدا لي أن من الغريب ان اثب فوق السياج لاضطجع بعد في هذه السقيفة غير المدفّأة . وران عليَّ الذهول ، وتراءت لي ضروبٌ من الاشياء السخيفة الحمقاء . وقُرع الجرس . قُرع على نحو ألِفْتُهُ منذ الطفولة . ففي بادىء الامر ، خشخش الشريط المعدني على الجدار ، ثم انطلقت في المطبخ رنة قصيرة محزونة . كان ذلك أبي عائداً من النادي. فنهضتُ ، ومضيتُ الى المطبخ . وشبكت آكسينيا الطاهية يديها حين رأتني ، وانفجرت لسبب ما بالبكاء ، ثم قالت في رفق :

« يا حبيبي ! يا نفيسي ! أوه ، يا الـهي ! »

وراحت تغضّن ، في اهتياجها ، مئزرها . وعلى النافذة كانت جرارٌ من الفودكا ، فصببت لنفسي ملء فنجان شاي ، وكرعته في نهم ، فقد كنتُ على ظمأ شديد . وكانت آكسينيا قد نظفت الطاولة والمقاعد منذ فترة قصيرة جداً ، وكانت تفوح في المطبخ تلك الرائحة التي تعبق بها المطابخ الزاهية المنظمة القائم على امرها طهاة نظيفون ذوو هندام حسن . وكانت تلك الرائحة وترنّم الصرصور هما اللذين يغريانا - ونحن اطفال - بالذهاب الى المطبخ ويضعاننا في الجو المساعد على أن نسمع الحكايات الخرافية ، ونلعب لعبة « الملوك » ...

وسألتني آكسينيا ، في رفق ، وقد شاع الدم في وجهها وتقطّعت منها الانفاس :

« اين كليوباترة ؟ واين قبعتك يا عزيزي؟ يقولون ان زوجتك سافرت الى بطرسبرج ؟ »

كانت تعمل خادمة عندنا منذ عهد والدتي ، وكانت تقوم في وقتٍ ما بتحميم كليوباترة وتحميمي . فنحن ما نزال في عينيها طفلين صغيرين ينبغي أن تُسدي الينا النصيحة ، وتُبصّر في ما يضرّنا وينفعنا . وطوال ربع ساعة او نحو ذلك ظلّت تدني اليّ بجميع التأملات التي وُفقت ، بحكمة الخادم العتيقة ، الى ان تجمعها في سكون ذلك المطبخ منذ ان تعارفنا . وقالت ان من الممكن إكراه الطبيب على الزواج من كليوباترة ، وانما يتمّ ذلك بترهيبه ترهيباً شديداً . وإنه لو لُجيء الى الأسقف قبل فوات الأوان إذن لأبطل الزواج الاول . وأن من الخير لي ان أبيع دوبتشنيا من غير علم زوجتي ، وأضع المال باسمي في المصرف . وإنه اذا ما جثوت أنا وجثت أختي على قدمي والدتنا وتضرعنا اليه على نحوٍ مناسب فعندئذ يكون من الجائز ان يغفر لنا . وان علينا ان نقيم قداساً لوجه « ملكة السماء » . . .

وقالت حين سمعت سعال ابي :

« تعال ، تعال يا عزيزي وتحدّث اليه . تعال تحدّث اليه . إنحنِ ، إن رأسك لن يسقط من مكانه ! »

ومضيت . كان ابي جالساً الى المائدة يضع تصميماً اولياً لدارة صيفية ، ذات نوافذ قوطية ، وبرج بدينٍ أشبه ببرج المراقبة

الخاص بالاطفائيين ـ وكان التصميم في الجملة جافياً خلواً من الذوق . ذلك بأنني لم اكد اشخص الى مكتبه حتى وقفت ساكناً في نقطة تمكنني من ان ارى ما يرسم . والحق اني لم اعرف لماذا قصدت الى الاجتماع بأبي ، ولكني اذكر أني ما ان رأيت وجهه النحيل ، وعنقه الاحمر ، وخياله على الحائط حتى رغبتُ في ان اطرح نفسي على عنقه ، وان ارتمي ، كما أوصتني آكسينيا ، على قدميه . ولكن مشهد الدارة الصيفية ذات النوافذ القوطية ، والبرج البدين كبح جماحي .

وقلت :

« مساء الخير . »

فرمقني بنظرة ، وفي الحال أسبل عينيه على التصميم الذي رسمه .

ثم سألني بعد لحظة انتظار :

« ماذا تريد ؟ »

فقلت في صوت غائر :

« لقد جئت لاخبرك ان اختي مريضة جداً . انها ان تعيش طويلا . »

فتنهد ابي ، وقال وهو ينزع نظارتيه ويضعهما على المائدة :

« حسناً ، ان ما تزرعه فأياه تحصد . »

ونهض عن المائدة وكرر :

« ما تزرعه فأياه تحصد . اسألك ان تتذكر كيف جئتني منذ سنتين ، فتوسلت اليك في هذا المكان نفسه ان ترجع عن غيك . لقد ذكرتك بواجبك ، بشرفك ، بما تدين به لاجدادك الذين يتعين

علينا ان نصون تقاليدهم بوصفها مقدسة، فهل اطعتني؟ لقد ازدريت بنصائحي، وأصررت في عناد على التمسك بآرائك الخاطئة. وأسوأ من ذلك انك جررتَ اختك معك الى طريق الضلال، وزينت لها ان تفقد مبادئها الاخلاقية وحس الخجل عندها. والآن، ها انتما ذانِ في حالٍ سيئة. حسناً، ما تزرعه فأياه تحصد!»

قال ذلك وهو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. ولعله تخيل اني وفدت عليه لأعترف بأساءاتي، ولعله توقّع ان يراني اتوسل اليه ان يغفر لي ولأختي. واستشعرت البرد، واخذت ارتجف وكأني محموم، وتكلمت في صعوبة، وفي صوت اجش، فقلت:

«وانا ارجوك ايضاً ان تذكر انني في هذا المكان نفسه توسلت اليك أن تفهمني، ان تفكر، ان تقرر معي كيف ينبغي ان نعيش ولاي غرض، وفي الجواب عن ذلك رحت تحدثني عن اسلافنا، وعن جدي الذي كان ينظم الشعر. وها انا اخبرك الآن ان ابنتك الوحيدة على فراش الموت، ومع ذلك فانت تحدثني من جديد عن اجدادك، عن تقاليدك... ومثل هذا الموقف غير الجادّ في سنك العالية، حين يكون الموت قاب قوسين، وحين لا يكون قد بقي لك اكثر من خمس سنوات او عشر!..»

فسألني ابي في جزم، وقد اخذه الغيظ لوصفي موقفه بالطائش غير الجادّ:

«لأيّ شيء جئتَ الى هنا؟»

– «لست أدري. انا أحبك. واني شديدُ الأسف لأن نكون متباعدين الى هذا الحد، ومن أجل ذلك جئت. أنا

لا ازال أحبك ، ولكن أختي انفصلت عنك بالكلية . إنها لا تغفر لك ، ولن تغفر لك الآن . إن مجرد اسمك يثير نفرتها من الماضي ، من الحياة . »

فصاح أبي :

« ومن الملوم على ذلك ؟ انها غلطتك ، ايها الوغد ! »

فقلت :

« حسناً ، لنفرضْ أنها غلطتي . أنا أقرّ بأني خليق بأن ألام على اشياء كثيرة ، ولكن ما السبب في ان حياتك هذه - التي تحسبها ملزمةً لنا أيضاً - هي كئيبة ومجدبة الى هذا الحد ؟ ما السبب في أني لم أجد في أيّ من هذه البيوت التي سلختَ الثلاثين السنة الاخيرة وأنت تبنيها رجلًا استطيع ان اتعلم منه كيف أعيش من غير ان اتعرّض للوم والتقريع ؟ ليس في هذه البلدة كلها رجلٌ مخلصٌ واحد ! ان بيوتك هذه هي أوكار للعنة الابدية ، تُقتل فيها الامهات والبنات ، ويُنكّل فيها بالاطفال . . »

وسكتّ لحظة ثم أضفت :

« أمي المسكينة ! أختي المسكينة ! إن على المرء ان يخبّل نفسه بالفودكا ، بورق اللعب ، بالخزي ؛ عليه ان يصبح خسيساً ، مرائياً ، أو ان يقيم على وضع التصاميم طوال سنوات وسنوات ، لكي يغفل عن جميع الاهوال التي تستتر في هذه البيوت . لقد وُجدت بلدتنا منذ مئات من السنين ، وخلال هذه الحقبة كلها لم تنجب رجلًا واحداً ادى خدمة لبلادنا - رجلًا واحداً ليس غير . لقد خنقتم في المهد كل ما هو زاهٍ وحيّ . إنها بلدة أهلوها اصحاب

حوانيت ، وخمّارون ، وموظفون في بعض الاعمال التجارية ، ومراؤون متشدقون . إنها بلدة لا غناء فيها ولا حاجة اليها ، بلدة لن يأسف عليها انسان واحد اذا ما غارت فجأةً في بطن الارض . »

فقال أبي وهو يتناول مسطرته من على الطاولة :

« لست أريد ان استمع اليك ايها الوغد ! انت سكران . حذار ان تجرؤ بعد اليوم على المجيء لرؤية والدك وانت في هذه الحال ! اقول لك للمرة الاخيرة ، وفي استطاعتك أن ترد ذلك لاختك الفاسدة الاخلاق ، إن أياً منكما لن يفوز مني بشيء . لقد سلخت ولديّ العاقين عن فؤادي ، واذا ما أصابهما العذاب بسبب من عنادهما وخروجهما عن طاعتي فلن تأخذني الشفقة عليهما . وفي استطاعتك ان ترجع من حيث اتيت . لقد سرّ الالهَ ان يعذبني بكم ، ولكني سوف احتمل المحنة في اذعان وتسليم ، ومثل يعقوب سوف أجد عزاء في آلامي وفي العمل الموصول . يجب أن لا تجتاز عتبة بيتي إلا بعد أن تصلح طرائقك . أنا رجل مستقيم ، وكل ما اقوله لك هو لخيرك . واذا كنت تحرص على مصلحتك فينبغي ان تذكر طوال حياتك ما أقوله وما قلته لك . . . »

ولوحتُ بيدي في يأس ، ومضيت لسبيلي . ولستُ اذكر ما الذي حصل بعدئذ ، تلك الليلة وفي اليوم التالي .

لقد قيل لي إني طوّفتُ الشوارع حاسر الرأس ، مترنحاً ، مغنياً بصوتٍ عالٍ ، فيما كانت زمرة من الصبيان تعدو خلفي صائحةً :

« افضل من لا شيء ! »

٢٠

لو كان لي أن أتخذ لنفسي خاتماً اذن لكان النقش الذي أوثر ان يحمله : « لا شيء يزول . » فأنا أؤمن بأنه ما من شيء يزول من غير أن يترك أثراً ، وأن لكل خطوة نخطوها ، مهما تكن صغيرة ، شأنها في وجودنا الحاضر والمستقبل .

إنّ ما مرّ على رأسي لم يذهب ادراج الرياح . ذلك بأن ضروب البلاء التي نزلت بي والصبر الذي اعتصمت به عطفت أفئدة الناس عليّ ، فما عادوا يسمونني « افضل من لا شيء » ، وما عادوا يسخرون مني ، وصاروا اذا ما مشيتُ في محاذاة دكاكينهم لا يصبّون الماء عليّ . لقد اعتادوا مسلكي العمالي ، فهم لا يستغربون بعدُ ان يروني حاملاً دلواً من الدهان ، او مصلحاً بعض النوافذ ، على الرغم من نسبي النبيل . على العكس ، صار الناس يبتهجون بأن يعهدوا اليّ في أعمالهم ، وأمسوا يعدونني عاملاً من الطبقة الاولى ، وأحسن رئيس عمال بعد راديش الذي استعاد صحته ، والذي ما يزال يزخرف قبة برج الناقوس من غير صقالات خشبية ، ولكنه برغم ذلك لم يعد قادراً على ان يضبط العمال . وبدلاً منه ، صرتُ انا الذي اطوّف في البلدة بحثاً عن العمل ، وانعاقد مع العمال وادفع اليهم اجورهم ، وافترض المال بالربا الفاحش . واذ غدوتُ انا نفسي ملتزماً فقد أدركت كيف جاز ان يضيع المرء ثلاثة ايام متنقلاً حول البلدة بحثاً عن نفر من

عمال الآجر بسبب من مهمة تافهة التعويض الى ابعد حدّ . لقد انتهى الناس الى ان يعاملوني في كياسة ولطف ، ويخاطبوني في تأدّب . وفي البيوت التي يتفق لي ان اعمل فيها صار من دأبهم ان يقدّموا اليّ الشاي ، وان يسألوني ما اذا كنت راغباً في تناول طعام الغداء . وكان الاطفال والفتيات اليافعات كثيراً مايفدون لكي ينظروا اليّ في فضول وحنان .

وذات يوم ، كنت أعمل في حديقة الحاكم ، وأدهن عريشاً * هناك لكي يبدو مثل الرخام . واقترب الحاكم ، وكان يتمشى في الحديقة ، الى العريش . وإذ لم يكن عنده ما يعمله فقد أنشأ يحدثني ، فذكّرته بدعوته اياي ، مرةً ، الى مقابلته . فما كان منه إلا أن حدّق الى وجهي دقيقةً ، ثم فتح فمه على شكل حرف O ، وبسط يديه وقال :

« لستُ أذكر ! »

لقد كبرتُ ، وغدوتُ صموتاً ، متجهم الوجه . صرت نادراً ما اضحك ، ولقد قيل لي أني امسيت مثل راديش ، واني اضايق العمال بتنبيهاتي غير المفيدة ، مثله سواء بسواء .

ان ماريا فيكتوروفنا ، زوجتي السابقة ، هي اليوم وراء البحار ، على حين ينشىء أبوها خطاً حديدياً في مكانٍ ما من الولايات الشرقية ، ويشتري الاقطاعات هناك . والدكتور بلاغوفو يحيا اليوم وراء البحار ايضاً . وانتقلت ملكية دوبتشنيا الى السيدة تشيبراكوف التي اشترتها بعد ان اكرهت المهندس على

* العريش شبه الخيمة من خشب وغيره تعترشه النباتات والاعناب .

تخفيض السعر عشرين بالمئة . أما مويزي فقد صار يرتدي قبعة من لبد مستديرة الأعلى ضيقة الحاشية . وهو كثيراً ما يقصد الى البلدة في مركبة سباق أداءً لعملٍ ما ، ويقف قرب المصرف . ويقولون انه اشترى منذ مدة إقطاعة مرهونة ،وانه لا يفتأ يستعلم من المصرف عن دوبتشنيا التي يعتزم شراءها ايضاً . واما إيفان تشيبراكوف المسكين فقد ظل عاطلاً عن العمل فترةً طويلة من الزمان ، فهو يترنح متسكعاً في البلدة ، ويعاقر الخمر . ولقد حاولت أن أشغّله ، فدهن السطوح فترةً معنا وركّب زجاج النوافذ ، بل لقد أحبّ ذلك العمل ، وسرق الزيت ، والتمس البخشيش ، وسكر كما يسكر الدهان النظاميّ . ولكنه ما لبث ان ملّ العمل ، ورجع الى دوبتشنيا . ولقد اعترف لي العمال ، بعدئذ ، بأنه حاول إقناعهم بمرافقته ذات ليلة لقتل مويزي ، وسلب اموال السيدة تشيبراكوف .

وكان والدي قد امسى شيخاً كبيراً . لقد احدودب ظهره احديداباً كثيراً ، فهو يتمشى في الليالي غير بعيد عن منزله . ولم اعد اذهب قطّ لزيارته .

وخلال فترة اجتياح المنطقة فيها وباء الكوليرا ،عالج بروكوفي بعض اصحاب الدكاكين بمنعش البهار وبالراتينج ، لقاء شيء من المال . ولقد اشارت الصحف الى انه جُلد بالسياط لأنه كان يشتم الاطباء وهو جالسٌ في دكانه . وقضت الكوليرا على خادمه نيقولا . اما كاربوفنا فلا تزال على قيد الحياة ، وهي كدأبها تحب ابنها بروكوفي وتخشاه . وهي لا تكاد تراني حتى تهز رأسها في

تفجع وتقول وهي تتنهد :

« لقد اتلفتَ حياتك ! »

اني اشتغلُ ، في ايام العمل ، من الصباح حتى المساء . وفي العُطل ، حين يكون الجو جميلًا ، اصطحب ابنة اختي الصغيرة (لقد قدّرت اختي ان ترزق صبياً ، ولكنّ المولود كان انثى) ونتمشى وئيداً وئيداً الى المقبرة ، وهناك كنت أقف أو أجلس فترة طويلة من الزمان محدقاً الى القبر الاثير لديّ ، وأخبر الطفلة الصغيرة ان امها ترقد هناك .

واحياناً كنت ألتقي الى جانب القبر آنيوتا بلاغوفو فيرحب أحدنا بالآخر ونقف في صمت ، او نتحدث عن كليوباترة ، وعن طفلها ، وعن عظم التعاسة التي تحفل بها الحياة في هذا العالم . حتى اذا غادرنا المقبرة ، رحنا نتمشى في صمت ، وهي تتباطأ في خطوها تباطؤاً مقصوداً لكي تظل الى جانبي فترة اطول . وكانت الفتاة الصغيرة تجذب يدها ، مبتهجةً سعيدة ، وتضحك مضيقة عينيها في وجه الشمس المشرقة ، وكنا نقف ساكتين ، ونشترك في ملاطفة الطفلة الغالية ومداعبتها .

وكنا لا نكاد نبلغ البلدة ، حتى تودّعني آنيوتا بلاغوفو ، مضطربةً قرمزية الوجنتين ، وتمضي لسبيلها وقوراً مقطبة الجبين . . ولم يكن في وسع احد ممن يلتقونها ويرون اليها ان يتخيل انها كانت منذ هنيهة تسير الى جانبي ، بل لم يكن في استطاعته ان يتخيل أنها كانت تداعب الطفلة وتلاطفها .

انتهت

٢٠٥ / ٦ / ٥٤ / ٤٠٠٠